

حوار مع

برتراند رسل وسارتر

لطفي الخولي

دار المعارف بمصر

ج
٦

اقرأ ٣١٠ – اكتوبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

هذا الحوار

يدور هذا الحوار مع عقلين ، هما بلا جدال ، من أنبغ وأنشط عقول عالمنا المعاصر ، وأعنى بهما الفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » ، والفيلسوف الفرنسى « جان بول سارتر » .

والحق أنهما ليسا من نوع الفلاسفة الذين يلوذون بالصمت إلا عن الجدل الفلسفى النظرى داخل أبراجهم العاجية ، فإذا ما تحركوا لم يخطوا إلى أبعد من قاعات الجامعات . لا .. إن « رسل » و « سارتر » من فلاسفة الحركة والنشاط الفكرى والعملى فى قلب الحياة المعاصرة ، دفاعاً عن الإنسان : حريته وأمنه ومستقبله فى عالم متطهر من الاستبداد والاستعمار والحرب والاستغلال .

ولعل هذا هو ما جعلهما — رغم اختلاف اتجاهاتهما الفلسفية — يوحدان جهودهما فى عمل مشترك هام ، وهو محاكمة العدوان الأمريكى على شعب فيتنام .

ولقد أتاحت لى الظروف أن أتعرف عليهما عن قرب ، وأن يفتح لى كل منهما – برحابه – باب بيته وعقله . ومن هنا كان حوارى معهما .

وإذا كان هذا الحوار قد أكسبنى – ذاتياً – متعة وفائدة عظيمتين ، فقد كان أيضاً طريقاً لعرض قضايا الوطن العامة التى تشغل اهتمام ونضال شعوبنا العربية أمام هذين العقلين الكبيرين .

وليس هناك بديل عن الحوار ، إذا أردت أن تكسب لقضيتك مناصرين ومتفهمين ، وخاصة من وزن « رسل » و « سارتر » . فإن إيمانك « بعدالة قضيتك » لا يكفى لكى يراها الآخرون عادلة ، وإنما هم يرونها عادلة إذا اقتنعوا بذلك . وللإقناع طرق متعددة . . دراسة وثائق ، معاينة على الطبيعة إلخ . . . ولكن يبقى دائماً « الحوار » فى كل الظروف ، الطريق الهام والذى يجب استمراره دون انقطاع .

ونحن نقع فى خطأ فادح إذا رفضنا الحوار مع « الغير » لمجرد أن هذا « الغير » قد أخذ فى يوم ما موقفاً معادياً منا ، أو أن له رأياً مسبقاً بالنسبة لنا أو لعدونا لا نقره عليه ، أو أنه لا يتفهم قضيتنا على النحو المطابق مطابقة شاملة لفهمنا لها .

إن هذا الرفض — فوق أنه موقف عاطفى لا عقلى — يعنى تأمين كسب العدو لهذا الغير من ناحية ، كما يعنى تقوقعنا وجمودنا عن الحركة من ناحية أخرى . وبالتالى فهو غير علمى وغير ثورى معاً .

ولا يكفى أن نسوق فى تبرير هذا الرفض الحجة القائلة إنه لا فائدة من الحوار مع هذه العقول ، التى رغم نضجها وخبرتها ، لا ترى وجه العدالة فى القضية ، فهذا — ليس فقط — نوع من الكسل العقلى ، وإنما هو أيضاً تجاهل لحقيقة موضوعية أكدتها الأحداث التاريخية . وأعنى بها ، أن هذه العقول الكبيرة ترى الأمور والقضايا من مواقع جغرافية وتاريخية وفكرية ونفسية مختلفة عن مواقعنا ، وبالتالى فزوايا الرؤية بالضرورة ليست متطابقة مع زوايا رؤيتنا . وكذلك فإن هذه العقول رغم نضجها العام ، تظل أسيرة — بحدود نسبية — لما يلقى إليها يومياً — عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون والكتب — من تلوين خاص للأحداث ، فضلا عن نشاط الدعاية المضادة واتصال كتابها ومفكريها بهذه العقول فى حوار متصل ومتعدد الوجوه .

ولذلك فنحن نجد كثيراً من العقول الناضجة والكبيرة فى أوربا مثلا تناصر — بوجه عام — نضال شعوبنا العربية ضد

الاستعمار والتخلف والاستغلال ، ولكنها — نتيجة ظروف خاصة — تتحفظ إزاء نضالنا ضد الواقع الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين بالذات . ولعل فى مقدمة هذه الظروف الخاصة رد الفعل التاريخى لدى المثقفين فى أوربا تجاه حملات الإبادة النازية لليهود . وما يقع نتيجة لذلك من خلط بين المشكلة اليهودية والصراع العربى الإسرائيلى .

إن كلا من « رسل » و « سارتر » ، يمثل اتجاهاً بين المثقفين فى أوربا ، يدرك نضال شعوبنا العربية نحو التحرر والاشتراكية والوحدة ويتعاطف معه ، وعلى الرغم من ذلك فهو فى بعض القضايا الأساسية ، ما زال لا يتفهم بعمق وشمول وجهة النظر العربية مما جعله يتخذ مواقف معينة لا تتفق وحقيقة هذا الواقع ، ويتجلى هذا بشكل واضح فيما يتعلق بوضع وطبيعة دور إسرائيل وحقيقتها الموضوعية ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف الجذرى ، بل بسبب هذا الاختلاف يجب أن نتعرف — برحابة صدر — على وجهة نظر هؤلاء المثقفين ، وأن نثابر — من أرضية موضوعية وثورية — على الحوار معهم ، فنحن أصحاب قضية عادلة لا ينبغى أن نكف لحظة واحدة عن الدفاع عنها حتى تقتنع بها كل العناصر المعادية للاستعمار ، التى هى موضوعياً

وفى المدى الطويل قوة مناصرة لنا ، تاريخياً .

وانطلاقاً من هذا التحليل ، حرصنا فى « الأهرام » و « الطليعة » ، على فتح أبواب الحوار مع جميع العقول الكبيرة فى عالمنا المعاصر ، والتى تترك بصماتها الواضحة على حركة الإنسانية ضد الاستعمار والعدوان والاستغلال .

وفى هذا الكتاب أقدم نص الحوار الذى أجريته مع كل من : « برتراند رسل » و « جان بول سارتر » .

والحوار مع « رسل » وقع خلال شهر سبتمبر عام ١٩٦٥ بمنزله بمقاطعة ويلز ببريطانيا ، وأما الحوار مع « سارتر » فقد وقع خلال شهر يونيو عام ١٩٦٧ بعد العدوان الإسرائيلى الاستعمارى وذلك بمنزله بباريس .

وإذا كان الحوار الأول قد تميز بطرق موضوعات عديدة من بينها قضية فلسطين ، فإن الحوار الثانى تركز — بسبب توقيته بعد العدوان — على قضية الصراع العربى الإسرائيلى فحسب .

وقراءة نصوص كل من الحوارين ، تكشف عن ظاهرة هامة ، وهى أن رؤية قضايانا ليست واضحة ، وأحياناً مشوهة ، أمام مثل هذه العقول التقدمية الكبيرة ، وليس من

شك فى أن هذه العقول تتحمل قدراً من المسئولية عن ذلك ، ولكن يظل القدر الأكبر من المسئولية يمسك بنا نحن أساساً .

ومن هنا كان عملا ضرورياً وملحاً ، أن نفتح أبوابنا ونخرج ـ بثقة ورحابة أفق وفكر علمى ـ إلى حلبة الحوار والجدل بالساحة العالمية .

لطفى الخولى

القاهرة : يناير ١٩٦٧

١

حوار مع « برتراند رسل »

(سبتمبر ١٩٦٥)

كان أول شيء فعلته عند وصولي إلى لندن ، هو طلب مقابلة داعية السلام العظيم في عصرنا ، المفكر والفيلسوف البريطاني « برتراند رسل » . ولكني فوجئت ، إذ علمت من تلميذه وصديقه « رالف شونمان » سكرتير مؤسسة رسل السلام ، أن « برتي » — كما يحلو لأصدقائه وتلاميذه أن ينادوه دائماً — لا يقيم بصفة دائمة في لندن .. وأنه لا يحضر إليها إلا في المناسبات .. قيادة مظاهرة من أجل السلام . . مناقشة من أجل تحريم الأسلحة النووية وتدميرها . . إلقاء خطاب أو محاضرة ضد العدوان على الكونجو أو الفيتنام أو الجنوب العربي . . دخوله السجن — بعد إصراره على رفض دفع الغرامة المالية — كعقاب له على تعكيره غير القانوني لصفو المجتمع البريطاني بأعماله الجماهيرية .. ولو كان من أجل صفو وأمان وسلام كل المجتمع

الإنسانى . ولم تكن هناك مناسبة لحضوره خلال أسبوع إقامتى بلندن . قلت لشومان :

ـ ما العمل إذن ؟

ـ سأحدثه بالتليفون مساء اليوم فى بيته بمقاطعة ويلز وأتدبر معه الأمر .

و « رسل » يقيم بصفة شبه دائمة فى قرية منعزلة تطل بوداعة عل بحر إيرلندا بمقاطعة ويلز تسمى « بنرينديرث » على بعد ٦٠٠ ميل من لندن .

وبعد منتصف الليل أيقظنى تليفون من « شومان » يبلغنى بأن رسل يدعونى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه فى ويلز .

وشملتنى حالة من السعادة الغامرة لدعوة رسل . ولكن ما إن وضعت سماعة التليفون فى غرفتى بالفندق حتى راح شعور بالقلق الغريب يتسرب إلى نفسى . ولم تنفع فى مقاومته كمية السجاير التى رحت أدخنها فى فراشى . ظللت أفكر طول الليل فى صعوبة مواجهة مثل هذا العقل الإنسانى الجبار الذى يحمله رسل .

وفى الصباح هرعت إلى مكتبة « كوليت » العتيدة ، بحثاً وراء كتب لرسل ، وكتب عن رسل .

وخرجت من المكتبة أخيراً بكتابين ، أحدهما مجموعة

القصص الشيقة التى تروى « ليالى الكابوس » والآخر « هل للإنسان مستقبل » . ولم أكن قد قرأت لرسل من قبل علاوة على بعض المقالات والأحاديث المتفرقة غير ثلاثة كتب فحسب هى « طرق الحرية » و « مشاكل الفلسفة » و « مبادئ لإعادة البناء الاجتماعى » الذى ترجم للعربية بعنوان « نحو عالم أفضل » . المهم حبست نفسى مع الكتابين الجديدين طوال اليوم.

وجاءت اللحظة التى بدأت فيها رحلة السمائة ميل مع « رالف شونمان » فى سيارته الصغيرة التى رحنا نخترق بها بسرعة مائة ميل فى الساعة عدداً من المدن والقرى الإنجليزية .

وخلال ساعات الرحلة الست ، تمكنت أثناء الدردشة التى لا بد أن تتسكع جيئة وذهاباً بين اثنين لا ثالث لهما يجمعهما مشوار طويل ، أن ألتقط من « شونمان » بعض معلومات داخلية مفيدة عن رسل .

فمثلا عندما بلغ رسل السابعة والعشرين من عمره ، وكان ذلك فى عام ١٨٩٩ تنازل عن كل ما ورثه من ممتلكات بلغت قيمتها حوالى المليون جنيه إسترلينى إلى جمعيات البحث العلمى والدراسات الاشتراكية وتحرير المرأة ، وقرر أن يعيش من دخل عرقه وعمله فحسب . ومنذ ذلك الوقت وهو لا يعتمد فى

معاشه إلا على نتاج عمله . . لا يملك شيئاً حتى البيت الذى يعيش فيه « بويلز » ، أو البيت الصغير الذى يقيم فيه « بلندن » عندما يحضر إلى العاصمة .. كلاهما بالأجرة . إن رسل بهذا التنازل عن أمواله الموروثة أراد — كما يقول — أن يحرر نفسه من مرض عبادة المال وأن يجعل من العمل وحده محور حياته .

شىء آخر .. تزوج رسل أربع مرات . فى المرتين الأولى والأخيرة من سيدتين أمريكيتين ، أما فى المرتين الثانية والثالثة فمن سيدتين بريطانيتين . وله ولدان « كونراد » — مدرس للتاريخ بكلية برفورد بلندن ، و« جون » عضو بمجلس العموم ، وابنة واحدة متزوجة من « شارلس تات » . وكان موظفاً بوزارة الخارجية الأمريكية ولكنه استقال احتجاجاً على سياسة أمريكا العدوانية ، وعمل قسيساً — بروتستانتياً ، مبشراً فى أوغندا . ويقول عنه رسل : « لقد احتج زوج ابنتى ضد أمريكا وضدى فى نفس الوقت . . استقال من وزارة الخارجية الأمريكية وعمل مبشراً مسيحياً على الرغم من أن حماه هو صاحب كتاب " لماذا لست مسيحياً " . . على العموم هو حر فى احتجاجه » ..

وزوجة رسل الأخيرة « لادى أيدث » تشاركه حياته

الفكرية والنضالية من أجل السلام . وكانت تعمل من قبل مدرسة للأدب الإنجليزى وأصدرت فى عام ١٩٥١ كتاباً عن تاريخ حياة « بلنت » ، المحامى والسياسى البريطانى الليبرالى الذى دافع عن « أحمد عرابى» بعد هزيمة الثورة عام ١٨٨٢ ، وتزعم حملة عالمية وقتذاك للعفو عنه .

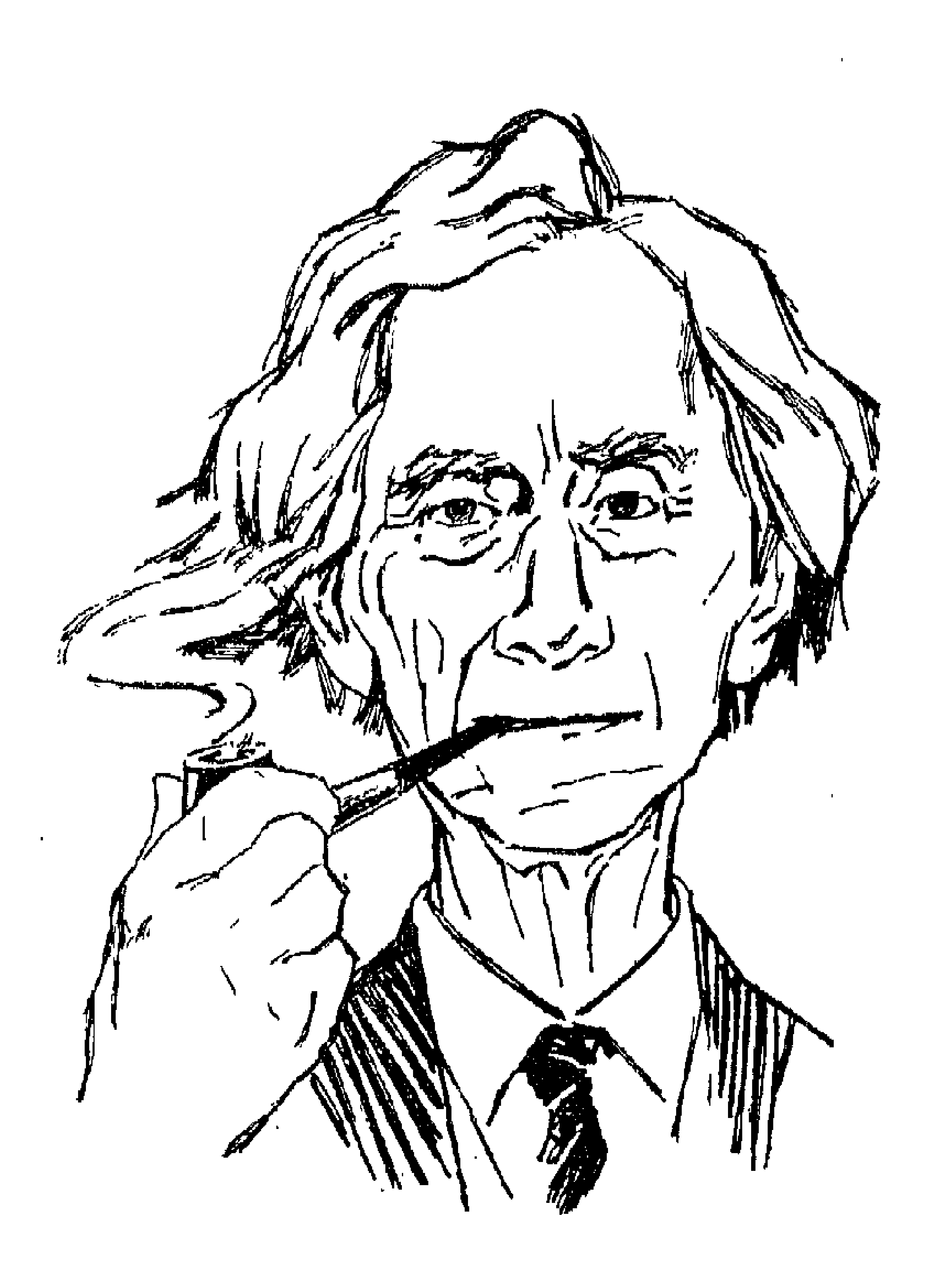
شيء ثالث . . . يعيش رسل منذ ثمانى سنوات على تناول السوائل وحدها المطعمة بالفيتامينات ومواد كيمائية خاصة لتمنحه الإحساس بالشبع . وذلك بعد إصابته بالتواء فى أمعائه ، يستحيل معه استقبال وهضم أى مواد غذائية غير سائلة .

وشيء رابع . . انتابت رسل خلال السنوات الأخيرة ثلاث أزمات من الأرق والقلق العصبي الشديد ، حتى لقد خشى المقربون منه على حياته . وكان ذلك على التحديد خلال كل من أزمة البحر الكاريبي بسبب كوبا ، والتى وضعت العالم على حافة الحرب فى أكتوبر ١٩٦٢ ، ومقتل الرئيس كيندى فى نوفمبر ١٩٦٣ ، وتنحية خروشوف عن السلطة فى الاتحاد السوفييتى فى أكتوبر ١٩٦٤ . . وكان يقول دائماً لمن حوله : « إذا لم نتحرك فى كل مكان بالسرعة الحاسمة والقوة الكافية فإن مجانين الحرب سيسيطرون على الإنسانية » .

وأخيراً . . . وصلنا إلى القرية الموعودة ، ورحنا نصعد الطريق الأخضر الضيق ، إلى الهضبة التى يتربع عليها بيت « رسل » المطل على البحر الأيرلندى . بيت متواضع ، أبيض فى لون الحليب . ولمحت من نافذة السيارة رجلا جالساً القرفصاء على باب البيت يداعب كلباً ، ولم أكن فى حاجة إلى ما همس لى به « شونمان » لأعرف أن هذا الرجل هو رسل نفسه . . كان شعره الأبيض الهايش فوق رأسه ، وسحابات البايب التى تتماوج على صفحة وجهه تفصح عنه . ظللت أحدق النظر فيه ، وصورته تكبر وتتحدد خطوطها أكثر فأكثر فى عينى ونحن نقترب منه ، حتى إذا ما استقرت السيارة أخيراً على بعد خطوات من باب الدار ، تمرد الكلب على صاحبه ومرق من بين ذراعيه وراح يلف حول العربة ينبح مهتاجاً ، ورسل يقوم متقدماً خطوات محاولا تهدئة كلبه بصوت عميق ساخن :

— « لا داعى لكل هذا الهياج . . إنه رالف وصديق من مصر . . . لماذا تفسد علينا فرصة اصطناع الأدب الإنجليزى أمام ضيفنا المصرى » .

ومد إلىّ — مع بسمته — يداً نحيفة ، ولكنها ، مستقيمة وثابتة . . . وقال مرحباً :



— « أرجو ألا تكون قد تعبت خلال الرحلة . أنا جد آسف لأنى لم أستطع لقاءك فى لندن ، وسعيد جداً بقبولك دعوتى . . أرجو ألا أكون قد سببت لك إزعاجاً بتأخير سفرك . . رالف أخبرنى أنك أخرت سفرك خصيصاً من أجلى » .

كان يتكلم ببساطة وسرعة ، لم أستطع أن أجاريهما بغير الابتسام الخجول .

وأخرج ساعة قديمة من جيبه وتطلع إليها ثم قال :

— « الساعة السادسة والربع . . أظنكم تأخرتم ساعة على الأقل » .

ولم أدر ماذا أقول . وبادر « شونمان » بالقول :

— توقفنا أكثر من مرة بالطريق للفرجة .

عاد يقول :

— « هل أعجبك ريفنا ؟ »

وفى هذه المرة نطقت :

— لم أكن أظن أنه على هذه الدرجة من الجمال والتنسيق .

— « على العموم الفضل للمطر وللإنسان . أعتقد أن ريفكم فيه الإنسان، ولكنه مفتقد للمطر .. على العموم النيل العظيم يعوضكم عنه . هذا هو الفرق على ما أظن » .

ــ وهناك على ما أعتقد فرق آخر هو أن الريف الإنجليزى ريف مجتمع صناعى متقدم ، أمد الفلاحين بالآلات الحديثة وبالكهرباء . أما ريفنا فهو ريف مجتمع ظل زراعياً متخلفاً مدة طويلة . . إن قيامنا بالتصنيع الآن سوف يطور الريف تطويراً جذرياً .

ــ « بلا شك . . . تفضلوا الشاى فإنه ينتظركم » .

وأصر « رسل» على أن أتقدمه داخل المنزل. وتحركت إلى الأمام بخطوات جانبية متأنية . كنت قد أعددت كلمات كبيرة لهذا اللقاء . ولكنى أحسست أمام تواضع الرجل وبساطته وروحه الفكهة بسخافة كل ما أعددته من كلمات . . وشعرت وقتها أنى لو قلتها لكنت كذلك الممثل الذى يقف على خشبة مسرحنا بالقاهرة يصرخ بلغة عربية فصحى ، متقعرة متشنجة ، فى مسرحية مترجمة « يا سيدى اللورد العظيم » وكأنه يؤذن فى مالطة . . هو فى واد وجمهوره فى واد آخر تماماً، أو ما شابه ذلك . واكتفيت بأن قلت وأنا أهم بالجلوس فى حجرة الصالون ذات الأثاث الإنجليزى القديم المريح.

ــ أنا شاكر لك دعوتك وإتاحة فرصة اللقاء معك .

ــ « بل أنا الذى أشكرك » .

وجذب « رسل » مائدة الشاى قريباً منه ، وراح يصبه فى الأقداح . وفجأة لمح « شونمان » شخصاً يتحرك فى الحديقة خلف الشرفة الزجاجية فهب سائلا رسل :

– هل تنتظر أحداً يا برتى ؟

– « لا .. لماذا ؟ »

– هناك شخص غريب لا أعرفه يتحرك فى الحديقة .

– « وماذا فيها؟ .. ليتحرك .. هو حر طالما لا يزعجنا .. لعل شيئاً من جمال الطبيعة قد جذبه ولفت انتباهه .. دعه فى حاله ».

ولوى شونمان رقبته وقال :

– برتى ! إنك دائماً تستخف بمسألة التجسس والمراقبة .

وانطلق خارجاً من الغرفة إلى الحديقة عبر الشرفة الزجاجية يطارد الرجل الغريب فى حين أطلق رسل ضحكة هادئة دافئة ، وهو يقدم لى قدحاً من الشاى قائلا :

– « إن رالف يشك دائماً فى أن الحكومة تراقبنا وتتجسس علينا حتى فى المكالمات التليفونية . . ليفعلوا . . هم يعلمون تماماً أننا نرتكب باستمرار جريمة العمل من أجل السلام ، ونحن لا نخفى ذلك . . فاللعبة مكشوفة ولا جدوى للتجسس أو للإخفاء . .

لكن يبدو أن كلا من الحكومة ورالف يحب دوره فى اللعبة.

. . تصور أن رالف فى حالات كثيرة يفضل أن يقطع مشوار لندن – ويلز ذهاباً وإياباً ، ليخطرنى بأشياء أو يناقشنى فى أمور يمكن أن نسويها بالتليفون؛ فى الأسبوع الماضى مثلا قطع المشوار ليخطرني بأن " بيكاسو " أهدى منظمتنا صورة من رسمه لتباع لحساب تمويل نشاطنا السلامى . إنى أشجع دائماً نزعة الشك فى الإنسان ضد كل المسلمات . . ضد كل التقاليد الموروثة . . ضد كل الأفكار الجاهزة . . ضد كل القيم المتعارف عليها . . هذا ضرورى جداً لاستمرار عملية التطور المادى والمعنوى على السواء ، وخاصة إذا كانت تحرك الشباب وتدفعهم إلى تحدى الواقع وكشف جوانب جديدة منه تغنى المعرفة الإنسانية . ولكنى ضد الشك فى الإنسان . . أقصد فى إنسانية الرجل ، ولو كان جاسوساً ، إن الشك فيه يزيد من عقدته ولا يحللها . . »

وقطع الحديث صوت رقيق لسيدة رقيقة ، بسيطة الثياب ، وقفت بباب الحجرة قائلة :

– برتى! ! ما الذى يفعله رالف بالجنايني الجديد ؟

وضحك راسل وهو يفرك يديه فى حبور تشوبه مسحة ذات براءة صبيانية :

ـ « إذن هو الجنايني الجديد يا صغيرتي . . يالخيبة أمل رالف ! »

واستطردت « الصغيرة أيدث » التي هاجم الشيب شعر رأسها :

ـ لقد أمسك بسترة الرجل وراح يمطره بالأسئلة والرجل حائر مرتبك بين يدى رالف .

لماذا كل هذا يا برتى ؟

ودحرج راسل نظرة إلى زوجته تعمد أن يغلفها بالغموض المثير ، وهمس :

ـ « إنه يشك فى أنه جاسوس »

ـ جاسوس ! جاسوس لمن ؟ وكيف علم رالف أنه جاسوس؟

ـ « لا أدرى . اسأليه . . »

ـ طبعاً . . هذه قضية خطيرة يا برتى .

وهرعت «الصغيرة » إلى الخارج بخطوات سريعة . فى حين غرق رسل فى الضحك وهو يقول :

ـ «وهكذا تولدت فى بيتنا قضية خطيرة من مجرد سوء التفاهم والشك فى إنسانية الإنسان . . تأكد أنه على مستوى الدولة وعلى مستوى العلاقات بين الدول تتخلق قضايا خطيرة على هذا المنوال

وبهذا الأسلوب ، تهدد حياة وسلام العالم . . إن سوء التفاهم الذى تولد بين كيندى وخروشوف مثلا عند أزمة كوبا المشهورة كاد يودى بالعالم إلى كارثة الحرب النووية لولا أن سيطر التعقل والحكمة على الموقف قبل فوات الأوان . ويمكن فى أى وقت أن تفتعل من العدم ، نتيجة الشك فى إنسانية بعضنا بعضاً ، قضايا خطيرة بين رجال الحرب فى أمريكا وبين رجال الحرب فى روسيا أو فى الصين. وإذا بهم يتبادلون القنابل النووية والصواريخ ويدمرون العالم . . اسمع . . اسمع . . »

قالها بروح الطفل البرىء الذى ما يزال يعيش فى أعماقه . .

وترامت إلينا داخل الحجرة أصوات مختلطة فى الخارج « لرالف » والصغيرة « أيدث » تتشابك فى حوار :

ـ لكن لماذا يا رالف ؟

ـ مجرد شك يا أديث . . لم أكن قد رأيته من قبل .

ـ هل تعرف عنه شيئاً من قبل ؟

ـ إطلاقاً . أقول لك مجرد شك فى رجل لم أره من قبل . لم أكن أعرف أنكم استخدمتم جنانياً جديداً .

ـ ولكن برتى يقول إنك تظن أنه جاسوس .

ـ لقد قلت له ذلك قبل أن أعرف أنه الجناينى الجديد .

ــ ولكن . .

وابتعدت الأصوات أو سكنت وارتفع صوت « رسل » يقول :

ــ « ستظل " لكن " هذه تلون نظرة زوجتي إلى الجنايني المسكين مدة طويلة ، وتؤول تصرفاته وسكناته . وسيشعر هو بنظرة الشك فيرتبك ، وربما أثر ذلك فى تصرفاته فعلا . . حلقة مفرغة . . رالف شك ، أيدث تسأل ، برتى قال . . لكن هل صحيح الرجل فعل كذا ؟ وهكذا . . وربما تولد عن هذا رأى عام فى البيت ضد المسكين على أساس أنه جاسوس وربما امتد إلى القرية كلها . . إن أصحاب المصالح المعادية للسلام والأمن والديمقراطية والحرية والاشتراكية فى المجتمعات، كثيراً ما ينجحون فى زرع أوهام من هذا النوع ، ويكونون بأساليبهم الشيطانية من حول هذه الأوهام رأياً عامًّا لصالحهم يقاوم كل تطور أو تقدم ، ويعدم ثقة الناس بعضهم فى بعض . ولذلك فإن علينا أن لا نقع فى هذا الأسلوب أو نمارسه » . .

وعاد رالف . وسأله رسل :

— « ماذا اكتشفت ؟ »

— إنه الجنايني الجديد . . واعتذرت له .

— « فعلت خيراً لأنك أسرعت فى الحكم عليه . . لقد برد شايك خلال قيامك بمطاردة الرجل المسكين . أرجوك أن تطلب من أيدث بعض الماء الساخن » .

وذهب شونمان لإحضار الماء الساخن . إن « اللورد برتراند رسل » الذى تعدى التسعين من عمره ، وزوجته « الليدى أيديث رسل » التى بلغت السادسة والخمسين ، يعيشان معاً فى منزل بسيط دون خدم أو حشم . فقط تساعدهما امرأة لمدة أربع ساعات يومياً تقوم بأعمال النظافة وتنصرف .

وفتح راسل باب الحديث مرة أخرى . قال :

— « أود أن أشكركم فى " الأهرام " و " الطليعة " على الاهتمام بمقالاتى ورسائلى ونشرها ، وإنى لسعيد أن يكون لى " قراء " فى مصر والبلاد العربية » .

— إننا نحن الذين نشكرك . وتأكد أن القاهرة مفتوح بابها بترحاب وتقدير دائماً لآرائك وأفكارك ومقالاتك .

— « حتى لو كنتم تختلفون معها ؟ »

— أظن أن الاختلاف فى وجهات النظر مقبول ما دام

موضوعياً ، وأعتقد أن التجربة قد دلت على أن اختلافنا لم يمنعنا يوماً من الاستماع الكامل مع الاحترام لآرائك ومناقشاتها.

— « هذا صحيح . ولا أخفى عليك أنه أدهشنى بعض الشيء.. لا أقصد بالضبط معنى الدهشة وإنما حيرنى . . بصراحة مصر سببت لى حيرة كبيرة » .

— لماذا ؟

— « إن الصورة التى تكونت لدى من قبل عن مصر ، أنها وقعت فى قبضة الدكتاتورية العسكرية منذ ١٩٥٢ . وهى صورة تكونت طبعاً من السماع وقراءة صحفنا ، وليس من المشاهدة الواقعية ، لأنه لم يتح لى أن أزور مصر للأسف . ولكن إذا بمصر تعلن الاشتراكية وبناء مجتمع متطهر من الرأسمالية . . وأقول لنفسى كيف تقوم الدكتاتورية ببناء الاشتراكية ؟ ثم أجد من يأتى ليقول لى وماذا تقول عن المعتقلين والمساجين فى مصر بسبب آرائهم ، وأسمع بعد ذلك بالإفراج عنهم : ولكنى أسمع فى نفس الوقت عن عدم توافر الديمقراطية ، وضماناتها . ثم يجيء نشركم لرسالتى فى " الطليعة " إلى المثقفين العرب كاملة بكل ما وجهته فيها من نقد لبعض الأوجه فى التجربة المصرية وفى الحياة العربية بوجه عام ، ومناقشتكم لها علناً . . إن نشر

النقد معناه حرية التعبير . . وحرية التعبير معناها الديمقراطية .
ثم نسمع عن دعوتكم التى يتزعمها بقوة الرئيس ناصر تحت شعار القومية العربية والتى تعطى هنا انطباعاً بأنكم تريدون السيطرة على البلاد العربية . ولكننا فى نفس الوقت نسمع عن مواقفكم ومواقف الرئيس ناصر شخصياً مع ثورات التحرير الوطنية فى كل مكان ومع السلام العالمى وضد العدوان الأمريكى . . وطبعاً هذا موضع تقديرى العميق . . ولكن ماذا عن أوجه الصورة الأخرى ؟ هذا هو مصدر حيرتى إزاء التجربة المصرية . . أرجو أن يتسع صدرك لكلمات رجل تعدى التسعين ويعيش على بعد آلاف الأميال من وطنكم . . ولكنه يحاول جاداً وصادقاً أن يفهمكم خاصة وقد أصبحتم الآن بعد تحرركم تلعبون دوراً رئيسياً فى مصير العالم ومستقبله وهذا ما يهمنى » .

وسكت « رسل » لحظات شغل نفسه خلالها بحشو غليونه ثم استطرد قائلا :

— « إذا كان الكلام فى هذا الأمر يحرجك ، فلنصرف النظر عنه . لا أريد أن أسبب لك مشاكل . . وعلى العموم الحديث بيننا لن يخرج من هذه الحجرة . . أنا أريد المعرفة فقط » .

وابتسمت وأنا أقول لنفسي : « إذا كان كل هذا التشويه قد نفذ إلى رسل فما بال الرجل العادي في بريطانيا أو أوربا » ، وقلت لرسل :

– لا مشاكل بالمرة . على العكس إني أرحب بأن يخرج الحديث من هذه الحجرة . وإني أريد أن أستأذنك في نشر حوارنا هذا كاملا « بالأهرام » في القاهرة .

– « كما تشاء . لا مانع عندي . . ولكن هل لي أن أسألك ، لماذا ؟ »

– لسببين : أولا لأثبت لك عمليًّا زيف الصورة التي نسجت هنا في بريطانيا وفي أوربا عامة عن التجربة المصرية سواء بحسن أو بسوء نية . وثانياً : لأطلع مواطني على كيفية تصور جهودهم وثورتهم تصويراً مشوهاً حتى لدى صديق عظيم كبرتراند رسل .

– « شكراً لتلقيبك إياي "بالصديق" » .

– هذه هي مشاعرنا الحقيقية تجاهك فعلا .

وأطلق « رسل » ضحكته الدافئة وهو يلوح بغليونه في الهواء :

– « لا تنفخني بالغرور . . هل أنا بهذه الشهرة حقًّا في مصر » .

وأحسست (بالإنسان فى رسل) يلح فى معرفة أبعاد قيمته خارج بلاده، فاستطردت قائلاً :

— فى مصر والوطن العربى كله .. لا أقول لك هذا مديحاً ذاتياً . إنه حقيقة. ونحن فى مصر مثلا نعرف « اثنين رسل » . رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة خلال ثورة ١٩١٩ وكان أداة باطشة من أدوات الاستعمار والرجعية الحاكمة ضد شعبنا ، وبرتراند رسل المفكر والفيلسوف وداعية السلام العظيم فى عصرنا. وبقدر ما ندين الأول ، وأظنه عمك ، بقدر ما نحترم ونقدر الثانى ونقرأ له ونترجم كتبه وأبحاثه .

وراح رسل يفرك يديه مسروراً ، وهو يقول :

— « أولا رسل باشا ليس عمى ولكنه مجرد قريب . وإذا كنت أطمع فى أن تستمروا فى التمييز بينه وبينى فى الأفكار والاتجاهات والسلوك ، فأظن أن رسل باشا على الرغم من موقفه الاستعمارى البغيض كان له على ما علمت بعض الفضل فى محاربة تجارة الحشيش فى مصر » .

— وهناك من يؤكد أنها كانت محاربة شكلية، لأن الاستعمار قد عمل على تشجيع تجارة وإدمان الحشيش كجزء من سياسته لمحاولة تحطيم معنويات الشعب المصرى .

— « جائز . جائز جداً . ولكن هل تعلم أن احتلالنا . . أقصد احتلال الاستعمار الإنجليزى لمصر بالذات كان إحدى الصدمات العنيفة التى أصابتنى وهزتنى وجعلتنى أنفصل ، فكراً وحياة ومصيراً ، عن طبقتى الاستعمارية التى نشأت وتربيت فيها » .

— كيف ؟

— « كان لى مربية ألمانية ، صارمة ومثقفة ، ما زلت أذكر حتى الآن وجهها البيضاوى الكبير القاسى القسمات ، اختارها لى جدى الذى عشت معه بعد وفاة والدى ، لترعانى وتنشئنى على النظام والطاعة فقد كنت ولداً مشاكساً مغامراً لا يحترم التقاليد. ولكن جدى لم يدر بأن هذه المربية الألمانية لم تكن تكره فى الوجود شيئاً قدر كرهها للإنجليز وصلفهم وكبريائهم ونفاقهم .. وطبعاً لقنتنى هذا كله مع حب النظام فى العمل . وكان احتلال الإنجليز لمصر ، الذى زعموا أنه مؤقت وأنهم سيجلون عاجلاً عن أرض النيل ، هو الموضوع الذى ظلت المربية الإنجليزية تطرقه معى باستمرار كدليل على الكذب والخداع والنفاق الإنجليزى . وكنت أقاومها وأؤكد لها بأننا سنجلوا عن مصر طالما وعدنا بذلك. وكانت هى على العكس تؤكد لى أن الاحتلال مستمر ولن

يخرج الإنجليز من مصر إلا عنوة بثورة مصرية . . وطبعاً أكدت الأحداث صدق رأيها وبددت آمالى فى أن يفى الإنجليز ، بنو وطنى ، بوعودهم . ودفعتنى للثورة على كل طبقتى وتقاليدها وأفكارها ونظمها . وللأسف لم تعش مربيتى حتى جلاء الإنجليز عن مصر ، كما توقعت ، ونتيجة لثورات متوالية كان آخرها ثورة ١٩٥٢ » .

قلت : ولم تر أيضاً كيف حاولوا أن يعودوا مرة أخرى بعدوانهم مع الفرنسيين والإسرائيليين عام ١٩٥٦ بعد تأميم قناة السويس . ولكن ردتهم مقاومة الشعب المصرى .

وضحك رسل طويلا قبل أن يقول :

— « لو كانت حية حتى عام ١٩٥٦ ورأت بلاهة الاستعمار الإنجليزى وهزيمته ، لماتت وقتها من الفرحة . يا إلهى .. كم كانت تكره الإنجليز » .

وعاد شونمان إلى الحجرة بالماء الساخن وفوجئ بموجات الضحك المتبادلة بين رسل وبينى فتساءل .

— مم تضحكان ؟

وهمس رسل :

— « عن مربيّتى الألمانية . . ولكن باحترام . . نعم ! بكل احترام . . . »

وفغر « شونمان » فمه دهشاً :

— مربيتك ؟ وما علاقة مربيتك بلطفى . . . لا أظن أنه أتيحت له فرصة معرفتها .

وانفجر رسل ضاحكاً ، وهو يربت مسندى مقعده بيديه :

— « لا . . لا . . علاقته بها أنه مصرى . . وكانت مربيّتى تقول لى عن مصر .. والإنجليز .. هه . . لا .. لا... هذه حكاية طويلة ومعقدة أحكيها لك فيما بعد . . فيما بعد . . »

وفجأة شعرت « برسل » يسرح بعيداً وعيناه تغيمان ونزل به الصمت وهو منهمك فى صب الماء الساخن داخل إبريق الشاى . وأرسلت نظرة قلقة إلى شونمان ، فبادرنى قائلا :

— أتركه خمس دقائق .. إنه يريح نفسه من إجهاد الحديث. هذه عادته . . لا تنسى السن . . ثلاثة وتسعون سنة . . قل ما هى حكاية المربية ؟

ورحت أروى له الحكاية وأشاركه الضحك عليها من جديد. وإذا « برسل » يلتفت إلينا سائلا :

— « ما الذى يضحككما ؟ »

وسارع « شونمان » إلى الرد :

— مربيتك الألمانية يا برتى !

واعتدل « رسل » فى جلسته ، يواصل حديثه من حيث انقطع تماماً ، وكأن الخمس الدقائق التى غاب فيها عنا ، لا حساب لها ولا أثر .

— « دعنا من الماضى . . ماذا عن مصر الآن . . مصر الحاضر والمستقبل . لقد أوضحت لصديقنا حيرتى . . وأكد لى أن الصورة التى لدينا عن مصر الآن ، فيها تشويه . فهل يمكن أن نعرف أين التشويه ؟ »

وأدار شونمان رأسه ناحيتى مع سؤال رسل . وهيأت نفسى للإجابة وللحظة داهمتنى الحيرة . . من أين أبدأ ؟ وبسرعة قررت أن أدخل إلى الموضوع بالمفتاح الذى قدمه رسل حينما قال : « ولكننا فى نفس الوقت نسمع عن مواقفكم ومواقف الرئيس ناصر شخصياً مع ثورات التحرير الوطنية فى كل مكان ومع السلام العالمى ضد العدوان الأمريكى . . » .

وقلت :

— وهل يمكن تصور أن فى قدرة الشعب المصرى وجمال عبد الناصر القيام بهذا الدور ضد قوى الاستعمار العالمى ، القديمة

والحديدة ، ومحاربتها سياسيا ودعائيا ، وبالمساعدة العسكرية والمادية أحياناً كما حدث فى الجزائر والكونجو والجنوب العربى . وبالتدخل المسلح المباشر أحياناً أخرى كما حدث بالنسبة لثورة الشعب اليمنى . . هل كان يمكن ممارسة هذا الدور بكل هذه الحيوية لو أن الشعب المصرى غير متحد وغير واع بما يفعله ، وبالتالى يملك حريته ومصيره بين يديه ، أو كان جمال عبدالناصر دكتاتوراً ؟ إن قوى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وضعت حساباتها على أساس أن الشعب المصرى يئن تحت حكم دكتاتورى عسكرى ، وأنه ما إن يرى جيوش الإنجليز والفرنسيين تقتحم البلاد لإسقاط ناصر حتى يتحالف معها ليخلص نفسه من الحكم الدكتاتورى . فماذا حدث فى الواقع . .

— « حدث العكس تماماً .. وهذا من حسن حظ التاريخ » .

— بالضبط . وإذا بالشعب والجيش وناصر قوة واحدة متماسكة تقاوم العدوان حتى تدحره فى بورسعيد والسويس .

— « ليت مربيتى الألمانية كانت حاضرة معنا الحديث .. »

— وخلال هذا العدوان لم يحارب الشعب المصرى وحده . . وإنما حاربت معه كل الشعوب العربية ، قطعت أنابيب البترول ، وأرغمت حتى الحكومات الرجعية العربية وقتذاك على

أن تقطع علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا . وكشفت معركة العدوان ما سبق أن كشفت عنه مؤامرة اغتصاب فلسطين من أن البلاد العربية تواجه مصيراً مشتركاً واحداً ، وأنه لا بد من بناء وحدتها القومية . . وعلى هذا الأساس قامت أول وحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٥٨ .

— « ولكن هذه الوحدة لم تصمد حسب علمى . وإنما أصابها الانفصال بعد سنتين أو ثلاث : . هل يمكن القول بأن أسس الوحدة القومية غير متوافرة ، وأن المسألة — كما يقولون — هى عملية فرض للوحدة من جانب الرئيس ناصر ؟ »

— إن انفصال سوريا عن الوحدة وقع بعد أن صدرت قوانين يوليو ١٩٦١ التى فتحت الطريق للتحول الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها المصرى والسورى وقتذاك . ومن الذى قام بالانفصال؟ وكيف قام ؟قام به أصحاب المصالح الإقطاعية والرأسمالية الكبيرة فى سوريا بتمويل ومساندة من القوى الاستعمارية والرجعية فى المنطقة، المعادين لأى تحول اشتراكى. واستخدموا فى هذا مجموعة من العسكريين المغامرين قاموا بانقلاب عسكرى . . وإذن فالانفصال هنا فى حقيقته ثورة مضادة ، ضد الثورة التحررية العربية وتطورها نحو الاشتراكية

ولأن هذا الانفصال معاد لحكم الواقع الثورى والتاريخى فى البلاد العربية لم يستطع حكم الانفصال أن يعيش . . لفظه الشعب السورى نفسه. وليست القومية العربية والوحدة العربية « اختراعات » سياسية حديثة ، ولكنها نداء الأجيال المتعاقبة قبل ظهور ناصر بزمان بعيد. وتقوم قومياً على أساس وحدة الأرض واللغة والناس والتكوين التاريخى والحضارى والنفسى والروحى المشترك ، والمصالح الاقتصادية المشتركة . ثم هناك نقطة أخرى . . لقد كانت هذه البلاد موحدة — علوياً — سياسياً واقتصادياً تحت حكم الاستعمار سواء العثمانى أو البريطانى فى المشرق، والفرنسى فى المغرب . فلماذا تصبح الوحدة جريمة إذا جاءت من أسفل نتيجة إرادة الشعوب نفسها ووعيها لمصيرها المشترك . والهجوم الذى ينصب على مصر وناصر هنا ، هو هجوم استعمارى رجعى يهدف ضرب قلب هذه الوحدة . فمصر بحكم أنها أكثر البلاد العربية تطوراً وسكاناً نسبياً، تلعب دوراً رئيسياً فى عملية الوحدة وخاصة بعد تحررها السياسى والاقتصادى الكاملين نتيجة ثورة ١٩٥٢ ومعركة السويس عام ١٩٥٦ . ويزداد الهجوم طبعاً بانتهاج مصر طريق الاشتراكية ، لأن الوحدة العربية حينئذ لا يمكن أن تكون إلا لصالح الطبقات الشعبية صاحبة

المصلحة فى بناء الاشتراكية . . أرجو أن أكون واضحاً .

وتوقفت عن الحديث ، ورحت أبحث فى جيوبى عبثاً عن سيجارة أشعلها . كانت كل سجائرى قد نفدت . . وقام « رسل » فأحضر علبة سجاير فضية وقدمها لى قائلا :

— « يبدو أنك مثلى مدمن تدخين . . . إن البايب لايفارقنى تقريباً إلا عند النوم » .

— ولكن ماذا نفعل الآن أمام تقارير الأطباء عن خطر التدخين وعلاقته بالسرطان . .

وصدرت عن رسل حلقات متتابعة من القهقهات قبل أن يقول :

— « لا تصدق . . إنها تخمينات حتى الآن لم تثبت علمياً بشكل قاطع . .وعلى العموم فإن وجودى شخصياً أمامك بصحة جيدة . . . كالحصان . . . أدخن بلا انقطاع منذ أكثر من ستين عاماً ، دليل على ذلك » .

وراح رسل يحشو غليونه ببطء ومزاج . وبدا كما لو كان فى نفس الوقت يحشو فى فمه ذلك السؤال الذى جرى بكلمات متمهلة على لسانه :

— « لقد تحدثت عن انفصال سوريا واتهمته بأنه كان

انقلاباً عسكرياً ... ولكن ، إذا لم أكن مخطئاً ، أليس ما حدث فى مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان أيضاً انقلاباً عسكرياً؟"

— فعلا كان انقلاباً عسكرياً فى الشكل والصورة . ولكنه كان ثورة تحررية تقدمية فى المضمون والمحتوى . . وهذا هو الفارق الأساسى . أنا أعلم أن الانقلاب العسكرى يثير بطبيعته الشك والنفور من جانب كل التقدميين والديمقراطيين فى العالم .

وكأنى لمست بهذه العبارة الأخيرة « وتراً حساساً » فى رسل فقد أحسست به وكأنه ينتفض ، حينما نطق بانفعال :

— « بالضبط . . بالضبط »

واستطردت قائلا :

— هذا هو بالضبط منبع سوء الفهم الذى وقع فيه كل الديمقراطيين والتقدميين فى العالم — ولا يزال بعضهم حتى الآن — بالنسبة لرؤية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر . لقد وقفوا عند شكل الحدث الثورى دون التعرف على حقيقته الموضوعية وجذوره ، فاعتبروه مجرد انقلاب عسكرى . . ولكن إذا بهذا الانقلاب العسكرى يواصل المعركة التاريخية ضد الاستعمار السياسى والاقتصادى بلا هوادة ، حتى يحقق لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث الاستقلال الكامل والحقيقى . وإذا به يصفى الأسرة

الملكية ورواسب الإقطاع والاحتكارية الأجنبية والرأسمالية الكبيرة الريفية والصناعية والمالية والتجارية ويشق الطريق بإصرار ووضوح نحو الاشتراكية .

وقاطعني « رسل » بحماس :

— « ولكن ما هي الظروف التي جعلت هذه الثورة تنفجر بهذه الصورة . . لا بد أن لذلك أسباباً موضوعية ، إذا مضينا مع تحليلك ، خصوصاً وأنا أعرف أن لشعبكم من قبل عديداً من الثورات الشعبية الجماهيرية . . ثورتكم ضد الفرنسيين . . ثم ثورتكم ضد الإنجليز في البداية بقيادة عرابي وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى بقيادة زغلول . . سعد زغلول . . أليس كذلك ؟ » .

وحركت رأسي بالإيجاب : وتابعت حديثي وقد عداني « رسل » بحماسته :

— إن معرفتكم الواسعة والعميقة بتاريخ بلادي ، والتي تظهر من خلال حديثكم ، لا يغيب عنها بلا جدال أن كل هذه الثورات قد انتهت إلى إحدى نتيجتين ، إما الفشل والانكسار كما حدث بالنسبة لثورة عرابي ، وإما المساومة والحلول الوسطى ، في إطار التصالح مع الاستعمار . كما حدث بالنسبة لثورة

١٩١٩ . . لماذا ؟ هناك طبعاً أسباب متعلقة بطبيعة القيادات الطبقية لهذه الثورات . ولكن هناك أيضاً أسباباً أخرى ، وخاصة فى الظروف المعاصرة لثورة يوليو ١٩٥٢ . إن مصر كما تعلمون كانت واقعة مباشرة تحت القبضة المباشرة للاستعمار البريطانى . وكانت قوات الاحتلال فى عام ١٩٥٢ تبلغ ٨٠ ألف جندى ، تراقب بعين مفتوحة مع السراى والطبقة الحاكمة وجهاز دولتها كل تحرك شعبى منظم وثورى مكشوف ، وقادرة على البطش به وتخريبه بكل ما تملكه من إمكانيات ووسائل.. كذلك فإن الطبقات الشعبية كانت مفككة وضعيفة ، وفضلا عن ذلك فإن طبيعة مصر الجغرافية الخالية من أية جبال أو مرتفعات أو غابات تساعد على تحصن تنظيمات ثورية بها وإدارة حرب عصابات ، لم تكن مواتية لقيام ثورة شعبية بالمفهوم التقليدى . ومن هنا كان لا بد لأى قيادة واعية تتصدى لممارسة الثورة من أن تبحث عن أسلوب آخر . وهذا ما فعله جمال عبد الناصر ، لقد كون تنظيم الثورة من الضباط الأحرار داخل الجيش . وحول بذلك جهاز القسر والقهر من أداة باطشة بالشعب ، إلى أداة تمارس العمل الثورى وتلتحم بالشعب منذ اللحظة الأولى . ومن هنا كانت صورة الانقلاب العسكرى للثورة .

كان رسل خلال الحديث قد سدد نظراته إلىّ فصافحتنى عيناه اللتان تشعان ذكاء وضياء من خلال التجاعيد التى تحاصرهما . . . . وعندما توقفت مد إلىّ يده بسيجارة جديدة وقال :

— « هذا حسن . . هذا يفسر كثيراً من الأمور . . لماذا لا تنشرون هذا الكلام ؟ ولا تناقشون هذه الأوضاع علانية ، إننا لا نعرف شيئاً هنا عن هذه الأمور » .

— نحن ننشره ونناقشه . . ومجتمعنا اليوم يموج بمناقشات واسعة وصريحة حول طبيعة الثورة وأهدافها ومشاكل البناء ونقد الأخطاء . ولكن ما يحدث بالنسبة لغالبية من يزورنا من الصحفيين والكتاب الغربيين هو أنهم يفعلون مثل ما يفعل « السياح » يأتون لمجرد الفرجة العابرة ، وفى غالبية الأحيان لا يتاح لهم الاتصال — بسبب اللغة — إلا بالعناصر المعادية للثورة والذين صفيت امتيازاتهم الاستغلالية . . فهى التى تستطيع أكثر من القوى الشعبية التحدث باللغات الأجنبية .

وهنا فاجأنى « رسل » بسؤال :

— « لأى طبقة ينتمى الرئيس ناصر ؟ »

— يمكن القول اجتماعياً أنه ينتمى — بحكم المكانة الوظيفية

لأسرة والده كموظف صغير فى الحكومة ، ثم له شخصياً كضابط بالجيش — إلى الطبقة المتوسطة .. وأقول اجتماعياً لأنه من الناحية الاقتصادية لا يملك شيئاً على الإطلاق — قبل وبعد رياسته للجمهورية — غير مرتبه الشهرى فحسب . وهو بهذا يمثل استثناء فريداً فى تاريخ حكام مصر . وهذه طبعاً ميزة كبيرة .

— « ليست ميزة فحسب. إن هذا من حسن حظه الشخصى والموضوعى كقائد ثورة وكحاكم . وهذا يفسر جانباً كبيراً من حريته فى الحركة وشجاعته فى اتخاذ القرارات التاريخية لصالح شعبه دون ما عوائق أو عقد نفسية . لقد وضعت الآن أصبعى على مصدر هام من مصادر قوته وحيويته . لا تتصور مدى سوء الحظ الذى يصاب به إنسان تقدمى لو كان مالكاً وصاحب ثروة . لقد كنت أنا شخصياً من سيئى الحظ الذين ولدوا مالكين وأصحاب ثروة . واو لم أستطع التخلص من هذه الأثقال المرعبة فى وقت مبكر ، لأصبحت أسيرها فى فكرى وحركتى ومصيرى . ولربما كنت أصبحت من نوع تشرشل أو إيدن أو ماكميلان أو جونسون بل ربما أسوأ منهم جميعاً .

إن جرثومة الملكية إذا تمكنت من الإنسان شحذت فيه إلى أقصى حد غريزة الاقتناء . وهذه الغريزة تتشكل فى صورة

نزعات هدامة تؤدى به إلى عبادة المال أولا وأخيراً على حساب كل القيم . ولهذا يصبح هذا الإنسان سجين منطق وحركة ما يعبده . . وهو المال .

انظر إلى المليونير الأمريكى مثلا أو فى الغرب عموماً . . إنه يملك بالفعل كل الإمكانيات المادية التى تجعله يعيش حياته على أعلى مستوى بلغته الإنسانية . ولكنه مع ذلك لا يشبع ولا يكتفى . . تراه ينطلق إلى مزيد من العمليات والصفقات يستغل ويسرق جهد الآخرين ويفلس منافسيه ويهدم كل القيم ويخلق أزمات الجوع والبطالة والحرب من أجل أن يزيد من رصيد ثروته المالية باستمرار . . وتراه فى هذا المجال يعمل بلا كلل ليل نهار وكأنه يجرى وراء لقمة عيش تقيه غائلة الجوع أو ليضمن ثمن عشائه .

وإذا استحكمت عبادة المال كقيمة اجتماعية أو نزعة " مشروعة قانوناً " فى مجتمع ما ، خربته معنوياً ثم مادياً تخريباً شاملا . إن عبادة المال تصبح هدفاً فى حد ذاته . ويتحول المجتمع إلى غابة من الوحوش تنهش بعضها بعضاً . . وليس فى هذا فرق بين غابة الأدغال قديماً ، وغابة الصالونات والبورصات والبنوك الحديثة . إن كل شرور عالمنا المعاصر ، ابتداء من

الدعارة حتى الحرب ، مصدرها الرئيسى عبادة المال .

والإنسان لا يمكن أن تتفتح فيه نزعات بناء السلام والخلق والابتكار وحب الغير واحترام المرأة كإنسان ، وكل هذه النزعات الإنشائية ما لم يستطع أن يطهر نفسه من عبادة المال.. إن هذا التطهر يمنحه قوة هائلة على الحركة البناءة الخيرة الواعية بمسئولياتها نحو الإنسانية ككل لا يتجزأ . . هذا التطهر يجب أن يكون مسئولية جيلنا الحاضر من أجل سعادة المستقبل .. لست متشائماً فى المدى البعيد . ولكن . . كم يؤرقنى المستقبل القريب للإنسانية » .

كانت كلمات « رسل » برنينها الخشن الدافئ ، تتوهج بالضياء وسط الغرفة التى راحت ظلمة الليل تحتضنها فى سكون. ونهض الرجل من مقعده يخطو خطوات متمهلة وهو يتمتم بلا توقف ، وكأنه يرتل مع نفسه تعويذة مقدسة « المستقبل ! المستقبل ! » . أشعل النور . . ارتكن إلى زجاج الشرفة الواسعة المطلة على بحر الشمال ، وسرح سرحته المعتادة لخمس دقائق أخرى . فماذا أفعل ؟ سرحت أنا بدورى مع نفسى أفكر ، حاسداً بتقدير وحب — لو صح التعبير — هذا الرجل الذى ولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، بقلب الإمبراطورية البريطانية عام

١٨٧٢ ، حين كانت الشمس لا تغرب عنها ، وكان جده « اللورد جون رسل » رئيساً لوزراء الإمبراطورية . ولكنه يصب بشجاعة ووعى ، جام سخطه وثورته على « عبادة المال » . . هذا الرجل الضئيل الحجم الذى يحمل على كتفيه ما يقرب من قرن من الزمان عمراً . ولكنه بشفافيته النفسية والعقلية يصب كل تفكيره واهتمامه فى « المستقبل » . . .

أى شاب مهيب فى الثالثة والتسعين من عمره هذا الذى أجلس إليه أحاوره .

وعاد إلينا رسل مرة أخرى ، وعلى فمه بسمة فيها معنى الاعتذار الرقيق عن غيابه ، ولكنها سرعان ما اختفت مع أول كلمة جرى بها لسانه من جديد :

— « هل تعلم شيئاً » ؟

— ماذا

— « لم يقتل أوزوالد ، كيندى . . هذا شيء أكاد أجزم به . أقصد أن القاتل الحقيقى ليس هو أوزوالد . . إنه ضحية مثله ، مثل كيندى تماماً ، إن الذى قتل كيندى هم عباد المال الشرهون فى أمريكا .

لقد قتلوه لأنهم اعتبروه "ولداً عاقاً" بدأ يخونهم . . يخون

أطماعهم وصفقاتهم ومغامراتهم العدوانية . . وبدأ يحكم العقل ويتجه ، دون أن يغير من طبيعته كرأسمالى ، للاقتناع بالتعايش السلمي وبجنون الحرب النووية . وكشفوا ذلك بوضوح عندما اصطدم مع جماعة الصلب . ثم أخيراً حينما تفاهم مع خروشوف حول " أزمة كوبا " وقبل الحل السلمى . لقد هزنى مقتل كينلدى . . كنت لا أوافقه على كثير من آرائه واتجاهاته . ولكنى كنت أرى فيه على الرغم من ذلك بارقة أمل جديد نحو تطوير السياسة الأمريكية ، لتتفهم العصر والإنسانية تفهماً جديداً أكثر تعقلا واستنارة .

لقد عكفت على دراسة ظروف الجريمة وقرأت تقرير لجنة وارن وعديداً من التقارير والتحقيقات الأخرى . وها أنذا أكاد أنتهى من قراءة مخطوط كتاب جديد عميق عن الحادث وملابساته وظروفه ، كتبه المحامى الأمريكي " مارك لين " . . (وأشار إلى المخطوط المفتوح على المائدة الصغيرة بجانبه) وخلصت من ذلك الكتاب إلى هذه النتيجة : لقد قتل عباد المال ومغامرو الحرب كيندى . وإنى لأكاد أشير بإصبعي إلى أشخاص محددين بالذات لهم صالح حيوى فى هذه الجريمة . وسوف تكون هذه النتيجة هى محور مقدمتى التى طلب إلى " ماركلين "

أن أصدر بها كتابه القيم الذى سوف يلقى أضواء هامة على هذه الجريمة التى أغطيت عمداً بضباب كثيف » .

— ومتى يصدر هذا الكتاب ؟

— « حسب ما أخبرنى به " لين " سيصدر الكتاب فى يونيو ١٩٦٦ على الأكثر . . أرجو أن تحرصوا على قراءته فى بلادكم . إنى أعتقد أننا لا يجب أن نسكت لحظة عن هذه الجريمة ، بنفس القوة التى لا نسكت بها عن حرب فيتنام والجرائم التى ترتكب هناك فالخيوط فى النهاية واحدة » .

وراح يقلب صفحات المخطوط بعصبية ؛ فسألته :

— ترى لو أن كيندى كان لا يزال حياً ورئيساً للولايات المتحدة أكان يفعل الآن ما يفعله جونسون فى فيتنام ؟

— « لقد راودنى هذا السؤال كثيراً . . فكرت فيه أكثر من مرة وانتهيت إلى أن كيندى على الأقل لم يكن ليتورط فى هذه الحرب إلى هذه الدرجة المرعبة التى وصل إليها جونسون . . ولو كانت قوى الضغط قد اضطرته إلى ممارسة العدوان والحرب ، فأعتقد أنه كان سيعمل على محاولة حل المسألة سلمياً بأسرع وقت ، مثلما فعل فى أزمة كوبا وقبل أن تصبح مجزرة رهيبة تهدد بإشعال الحرب العالمية كما هى الآن .

إن كيندى يختلف اختلافاً جوهرياً عن جونسون . هذا مؤكد . إن جونسون فى رأيى أسوأ رئيس جمهورية فى تاريخ الولايات المتحدة . . إن الشعب الأمريكي مسئول عن ذلك . . لا أدرى لماذا انتخبوه ؟ ! »

ــ أعتقد أنهم كانوا فى موقف خيار بين جونسون وبين جولد ووتر ، الذى كان يجاهر باتجاهاته العنصرية واستخدام القنبلة النووية لحل المنازعات الدولية .

ــ « لا أعتقد أن جونسون فى النهاية يختلف فى شىء عن جولد ووتر . . لقد نفذ جونسون بالفعل كل ما جاهر به جولد ووتر خلال المعركة الانتخابية من آراء واتجاهات . . وحرب فيتنام واستخدام الغازات السامة ضد الشعب الفيتنامى دليل على ذلك . لقد كان جولد ووتر صريحاً ، أما جونسون فكان مناوراً وهذا أخطر . وجونسون من طراز الساسة ذوى الفكر الإقطاعي المتخلف ، امتد إلى عصرنا . وأعتقد أنى إذا كنت مواطناً أمريكياً لما انتخبت أحداً على الإطلاق .. على الإطلاق .. فلا أحد يستحق »

ــ ألا ترى أن مثل هذا الموقف لا يعدو أن يكون أمراً سلبياً وبالتالى غير منتج . أو بتعبير أكثر صراحة هو موقف مثقف شريف واع ، يرى ويقيم ويدين ، ولكنه لا يتحرك ولا يفعل شيئاً .

COMMITTEE OF 100
ACTION FOR LIFE
DEFENCE MINISTRY
18 FEB. 1961

وأطلق رسل ضحكته الخشنة قائلا وهو يشوح بذراعيه :

— « كنت على ثقة من أنك ستواجهنى بهذا الرأى . . إن الشباب عموماً يكره السلبية . وهذا شىء فى طبيعته وهو ظاهرة صحية . وقد تكون على حق عندما تصف مثل هذا الموقف الذى تصورته لنفسى إذا كنت مواطناً أمريكيًّا بالسلبية ، ولكن هذه السلبية التى أدعو إليها ، ليست من النوع التقليدى حيث انعزل فيه عن الحياة . . عن القضية . . عن المشكلة . . وأجلس وحيداً فى بيتى ، وأقفل بابى علىّ ، وأقول أنا لست موافقاً . . أنا أدين ، وإذن لن أشارك ، وعليكم اللعنة . لا . إن سلبيتى ، إذا شئت أن تسميها كذلك ، فهى أن أقول " لا " فى قلب الحياة . فى لب المشكلة . فى قلب القضية . وأن أعمل على تجميع كل من يقول " لا " فى حركة مضادة لمن يقول " نعم " ، كرأى عام يحاصر ويضغط . فإذا كنت لا أريد أن أنتخب أحداً فى أمريكا ، فإنى أدعو كل من يوافق معى على هذا الموقف ، أن يتحرك كرأى عام يجاهد ويضغط ، بحيث يحدث إضراباً عن الانتخاب . أو على الأقل يضعف إلى حد كبير نسبة المنتخبين ، الأمر الذى يضعف من قوة الرئيس المنتخب ويزلزل الاستقرار الاجتماعى له .

ونحن هنا فى بريطانيا نقول " لا " للتسلح النووى لحكومتنا ونقول " لا" لسباق التسلح النووى المجنون فى عالمنا . ولكننا لا نقف عند حد القول . بل نتحرك لخلق رأى عام فى بريطانيا والعالم كله من أجل أن تصبح " لا " هى كلمة وحكم الضمير الإنسانى كله ، أمام القنبلة النووية . ومن أجل هذا أسست مع زملائى مؤسسة السلام التى شرفتنى بحمل اسمى . وقمنا بالمظاهرات والعصيان المدنى ، وتحدى أوامر البوليس ودخلنا السجن . . وهكذا .

وأيضاً حينما بدأت فى عام ١٩١٦ أعارض قانون التجنيد الإجبارى وأنتقد الحرب كسلوك بربرى غير إنسانى ، واتخذت فى عام ١٩١٨ موقفاً ضد الحرب العالمية الأولى معتبراً إياها حرباً بين مجانين سلطة وعباد مال ، يدفع ثمنها الإنسان فى النهاية . . لم أقف عند هذا الحد . بل ناديت بعصيان أوامر الحرب خلال مقالات علنية سجنت من أجلها ٦ شهور . وإن كانت هذه ضريبة ضرورية ، فقد أفادتنى شخصياً إلى أقصى حد من حيث تعميق إدراكي بأزمة المجتمع البريطانى والحضارة الأوربية عامة ، ومن حيث إتاحة الفرصة لى لتأليف كتابى " مقدمة إلى الفلسفة الرياضية " الذى أؤرخ به بداية مساهمتى المتواضعة

فى الفكر الإنسانى.

آه ! لقد ثرثرت أكثر من اللازم عن نفسى . . اعذرنى . إن ما أردت أن أقوله فى الحقيقة هو أن الشعب الأمريكى بعدم اتخاذه موقف "لا" من حكومة جونسون ، ومن الحرب الفيتنامية ، ومن أساليب الضغط العسكرية والاقتصادية على الشعوب الجديدة، ومن التفرقة العنصرية ، يصبح مسئولا فى الواقع عن كل هذه السياسة . وأنا لا أميل ، بتجربتى ، إلى القول بأن الشعب فى أى بلد غير مسئول عن فظائع حكامه . إن هذا غير صحيح . . فى رأيى أن الشعب الألمانى كان مسئولا عن هتلر وفظائعه لأنه وافقه ومشى معه . . وقد يكون هناك بعض أفراد قالوا: لا .. ولكن لم يكن هناك رأى عام شعبى . . كذلك الحال فى أمريكا اليوم . . » .

ــ ولكنا نشهد فى أمريكا الآن حركة شعبية تزداد نمواً واتساعاً ضد حرب فيتنام وضد التفرقة العنصرية . . وفى اعتقادى أن هذه ظاهرة صحية فى المجتمع الأمريكى .

ــ « لا أختلف معك عندما يتحرك الشعب تحركاً فعالا . ولكن يظل الشعب ــ فعلياً ومنطقياً ــ مسئولا حتى يتحرك . وبدون هذا فإننا ننتحل الأعذار ونبسط الأمور» .

– ترى ما هو رأيك فى حل قضية الحرب فى فيتنام ؟

– «الحل الوحيد هو إنزال الهزيمة بالعدوان الأمريكى وتحرير فيتنام وتركها للمصير الذى يقرره أهلها بحرية » .

– ولكن ألا ترى هذا الرأى يظل مجرد أمل طبيعى ومنطقى على الورق فحسب ، ويبقى كيف يمكن أن يتحقق هذا الأمل ؟

– « يتحقق هذا الأمل بطريق وحيد ، وهو أن يستطيع شعب فيتنام شمالا وجنوباً من أن يصمد للعدوان الأمريكى ويواصل الحرب حتى الانتخابات الأمريكية الرئاسية القادمة . إن هذا سوف يوقظ الشعب الأمريكى على حقيقة الهوة التى يسير إليها نتيجة سياسة العنف التى تمارسها حكومته فى الداخل والخارج على السواء . وهذا سوف يمنع بالتأكيد وصول أناس من أمثال جونسون أو جولد ووتر إلى السلطة مرة أخرى . ويعيد فتح الباب أمام أناس جدد من أمثال كيندى أو حتى أكثر منه تطوراً . وسوف يؤدى هذا أيضاً إلى هزيمة نهائية لسياسة العدوان والعنصرية فى المجال الدولى والمجال الداخلى على السواء . فالعنصرية فى أمريكا هى الوجه الآخر لسياسة العنف العدوانى فى الخارج ضد الشعوب . ولعلنا بعد ذلك نبدأ عصراً جديداً للمستقبل ، عصراً إنسانياً يقضى على العنف بكل صوره

ابتداء من" لكمة اليد " حتى " القنبلة النووية " . ويصفى مجتمعنا الدولى من كل صور الكراهية والتميز اللاخلاقى بين البيض والملونين . . بين الشرق والغرب . . بين الهند وباكستان . . بين الروس والصينيين . . بين الساميين واللاساميين . . ! »

وهنا أنتقلت بالحوار إلى منطقة جديدة تشغل حيزاً عظيما من اهتمام رسل . .

قلت له :

ــ ألاحظ من حديثك أنك تتحدث عن الكراهيات بشكل مجرد ومطلق . . بل تعتبر بعض الخلافات الأيدلوجية أو السياسية « كراهيات » . .

ولم يتركنى راسل أواصل حديثى بل قاطعنى قائلا :

ــ « لا مفر فى الحياة الإنسانية من وجود اختلافات فى وجهات النظر سواء على المستوى السياسى أو الفكرى وحتى بالنسبة للنظريات العلمية . . هذا ضرورى ومفيد للإنسانية وتطورها ، وإلا جمدنا عند مواقف محددة ونزل الموت والجفاف بحقلنا الإنسانى . ولكن عندما يتمنطق كل طرف فى الخلاف بالسيف والمدفع وربما بالقنبلة الذرية ويتقاتل مع الطرف الآخر وتسيل بينهما أنهار من دماء البشر . . فهنا " الكراهية" التى

تحركها نزعات التدمير والتخريب ، إما على أساس عنصرى ، وإما على أساس التسلط والسيادة وإما على أساس الاستغلال .

إن الخلاف بين الهند والصين تحول إلى كراهية عندما راحا يتقاتلان . . والروس والصينيون يوشك الخلاف بينهما أن يتحول إلى « كراهية » ، إن لم يكن قد تحول بالفعل فى المجالات السياسية والاقتصادية . أما الخلاف فيظل على مستوى الخلاف إذا ما بقيت أسلحته محصورة فى النقاش والحجج ، وميدانه العقل والحكمة والاقتناع الحر . . إن ما أقصد أن أوضحه لك ، هو أننى أقف موقفاً مبدئياً مضاداً من كل استخدام للعنف والقوة فى حسم خلاف إنسانى » .

— إذا سمحت لى أريد هنا أن أستوضحك : هل قيام شعوب المستعمرات بحمل السلاح لمقاومة المستعمر وعدوانه وخوض الحرب التحريرية . . مثل حرب شعبنا العربى التحريرية فى الجنوب العربى واليمنى مثلا ، تنسحب عليه مواقفكم المبدئية هذه ؟

— « بالطبع لا . . إن الحرب التحريرية رد فعل ضرورى ومشروع ضد العدوان الاستعمارى . ولقد كتبت مؤيداً كل حركة تحريرية ضد الاستعمار فى أى مكان . لعلى كتبت

بالذات عن حرب التحرير فى الجنوب العربى ونشرتم ما كتبت فى الأهرام . وكذلك فإن حرب التحرير فى اليمن الذى تخرج به من ظلمة التأخر البشع والاستبداد الوحشى . . حرب مشروعة. ولو لم أقف مع حروب التحرير لكنت فى الواقع بذلك مؤيداً للاستعمار ولعدوانه ، وبالتالى لمنطق القوة المسلحة فى حسم الأمور . وهذا التمييز هو الذى جعلنى أقف ضد الحرب العالمية الأولى كحرب استعمارية جنونية بين قوى كلها عدوانية، وذات نزعات شريرة وهدامة للإنسانية، فى حين وقفت بجانب الحرب العالمية الثانية لأنها كانت رد فعل ديمقراطى وإنسانى بأقصى ما يمكن أن يصل إليه مفهوم عصرها — ضد عدوان النازية والفاشية على العالم . ولو لم أقف هذا الموقف لكنت وضعت نفسى فى معسكر النازية والفاشية . ومن أجل هذا أيضاً أقف مع حرب التحرير الفيتنامية ضد العدوان الأمريكى. أرجو أن يكون موقفى من هذه الناحية واضحاً بالدرجة الكافية » .

— تماماً .

وأرسل لى رسل نظرة باسمة غلف بها سؤاله :

— « لماذا إذن لاتحلون مشاكلكم مع اليهود سلمياً ؟ »

—ليس بيننا وبين اليهود أية مشاكل من أى نوع حتى يمكن القول بحلها سلمياً أو عسكرياً .

وارتسمت علامات الدهش على وجه رسل ، وانطلق قائلا :

— « كيف ؟ ألا تعادون اليهود وتتسلحون لإبادتهم ؟ألستم "بصراحة" معادين للسامية ؟ »

وفهمت أننا نقترب فى الحديث من « مشكلة الصهيونية وإسرائيل » . ولكن من زاوية الدعاية الصهيونية التى تحاصر الرأى العام فى أوربا وترسم له صورة مشوهة عن القضية وحقيقتها.. ماذا أفعل ؟ هل أقفز إلى قلب القضية مباشرة أم أصاحب رسل فى أسئلته كما يلقيها على ؟ وفضلت الطريق الأخير وأجبت :

— نحن يا سيدى لا نعادى اليهود ، ولسنا معادين للسامية وبالتالى فليس هناك محل للتسلح لإبادتهم . . بل على العكس نحن ضد كل حركة معادية للسامية ، أولا : لأننا كعرب ساميين . وثانياً: لأننا ضد كل حركة عنصرية، طوال تاريخنا الطويل حتى اليوم ، سواء على أساس الدين أو الجنس أو اللون إلخ . . .

— « إنى أحاول أن أفهم من حديثك أن هذا هو رأيك الشخصي ، لا رأى قومك أو رأى الرئيس ناصر مثلا » .

ـ بل هو رأى قومى ورأى الرئيس ناصر ، لأنه نابع عن تراث شعبنا العميق الجذور ونظرتنا الثورية التقدمية . . فلا يزال فى بلادنا يعيش اليهود فى أمان وسلام ، إما كمواطنين لهم ما لنا من حقوق وواجبات ، وإما كأجانب لهم كل الرعاية والضيافة طالما لا يخلون بأمننا . .

ـ « فسر لى موقفكم من إسرائيل إذن ؟ »

ـ هذه قضية أخرى تماماً يا سيدى . إن إسرائيل ليست هى اليهود . وإنما هى تجسيد للحركة الصهيونية العنصرية العدوانية المشتركة المصالح مع القوى الاستعمارية ، احتلت بالقوة والسلاح والعدوان جزءاً من أرضنا ، وشردت مليوناً من شعب فلسطين ، وأقامت قاعدة عسكرية عدوانية ضدنا لصالح توسعاتها العنصرية وعمليات الاستعمار المعادية لنا ، وذلك فى شكل دولة . ولعله لا يخفى عليكم أن هذه القاعدة تحركت بالعدوان ضدنا مع الاستعمارين الفرنسى والبريطانى خلال حرب السويس عام ١٩٥٦ . ولا تزال تحتل جزءاً من أرضنا وتسوم بالتعذيب والقتل والإرهاب أكثر من ٢٥٠ ألف عربى سجين فى قبضة نظامها العسكرى العنصرى ، ونحن فى نظرتنا وتصرفاتنا نفرق تماماً بين اليهود كبشر وكدين ، وبين إسرائيل

كقاعدة استعمارية عنصرية عدوانية لا نستطيع أن نقف منها موقف المتفرج وهى تجهز وتعد وتحشد بالسلاح والمغامرين العنصريين من كل أنحاء الأرض لتمارس العدوان على شعبنا وأرضنا وحقنا فى التحرر والوحدة والاشتراكية . ومن هنا فموقفنا منها هو نفس موقفنا من القواعد العسكرية العدوانية الأخرى فى الجنوب العربى وقبرص مثلا . ومن هنا أيضاً فإن مصيرها هو مصير نفس هذه القواعد .

— « هذا تصوير جديد للموقف على ما أرى » .

— بل هو التصوير الوحيد الذى يعطيه الواقع الموضوعى : إنه على طول التاريخ مثلا فى مصر ، لم تحدث حادثة اضطهاد واحدة لإنسان لمجرد أنه يهودى . . أقول حادثة واحدة . أما فى إسرائيل فهناك يومياً أحداث اضطهاد بها قتل لبشر لمجرد أنهم عرب مسلمون ومسيحيون . وأذكر خلال مناقشات دارت مؤخراً فى القاهرة بين وفد الحزب الشيوعى الإيطالى وبين الاتحاد الاشتراكى ، أن تعرضنا لهذه القضية . وروى لنا الوفد الإيطالى أنهم انزعجوا عند ما كانوا يزورون إسرائيل لأن من التقوا معهم من العرب ، اضطروا إلى قطع الاجتماع قبيل الغروب للعودة إلى بيوتهم ، وذلك حتى لا يتعرضوا لرصاص الجنود

الإسرائيليين إذا التقوا بهم فى الشارع بعد غروب الشمس .

وضرب رسل مسند مقعده بقبضة يده ونفث ، دخاناً كثيفاً من البايب عدة مرات قبل أن يقول :

ـ « هذا كلام أسمعه لأول مرة تقريباً » .

ـ أؤكد لك أنه ليس ذنبنا يا سيدى . إننا نقوله ونفعله باستمرار . ولكن هناك حواجز أجادت الدعاية الإسرائيلية صنعها فى أوربا بحكم نفوذها ، هى التى تمنع حقيقة ما يجرى فى الشرق الأوسط من أن يرى أو يسمع دون تشويه أو تزييف هنا فى أوربا .

ـ « ولكن ألا تطلب إسرائيل باستمرار الاجتماع معكم من أجل السلام وأنتم ترفضون ؟ »

ـ سيدى أود ملحاً أن لا تكتفى بما تقوله إسرائيل بل بما تفعله وما زالت تفعله . إن إسرائيل احتلال عنصرى عدوانى لأرض عربية . . إسرائيل ارتكبت ضد العرب مذابح لا حصر لها ، ولعل المعروف منها فى أوربا قليل جداً ومشوه ، مثل مذبحة دير ياسين . . إسرائيل تعتدى باستمرار على البلاد العربية ، إما منفردة ، وإما بالاشتراك مع القوى الاستعمارية كالعدوان على مصر عام ١٩٥٦ . . إسرائيل شردت أكثر من مليون فلسطينى من ديارهم وترفض عودتهم . . إسرائيل ضربت بعرض الحائط

كل قرارات الأمم المتحدة ولم تنفذ واحداً منها . . إسرائيل تشارك بالتدريب والسلاح في كل الحركات المضادة لثورات الشعوب في أفريقيا ، إنها هي التي دربت وجهزت جيش موبوتو في الكونجو مثلا . . فهل يمكن أن ينبع من مثل هذه الطبيعة العدوانية العنصرية . . سلام ؟ أي سلام يمكن أن يكون مثلا بين العدوان العنصري المغتصب للأرض والسلطة في بلد كجنوب أفريقيا أو روديسيا ، وبين الشعب الأفريقي . إننا نرفض خديعة السلام المزيف — كما رفضت أنت خديعة السلام مع الفاشية والعنصرية الألمانية والإيطالية في الحرب العالمية الثانية ، ولكنا مع السلام العادل .

— « ماذا تعني بالسلام العادل؟ »

— السلام الذي يعيد ما اغتصب إلى أهله .

— « واليهود في إسرائيل الآن ، بعد أن ظلوا وأقاموا وامتزجوا بأرضها وكونوا شعباً منذ عام ١٩٤٨ ؟ »

— إذا كان هناك « شعب » يمكن أن يفبرك في عدة سنوات قليلة على هذا النحو فإن معنى ذلك أن نتشكك في التاريخ وقوانينه العلمية التي تعلمناها . لقد وفد ولا يزال يفد على إسرائيل مهاجرون مغامرون من جميع أنحاء العالم تلهبهم المشاعر العنصرية التي تذكى فيهم . . هؤلاء لهم أوطان أصلية جاءوا منها . . .

يخيروا بين البقاء فى فلسطين أو العودة إلى بلادهم . . وأما اليهود الفلسطينيون فلهم حق البقاء مع كل عرب فلسطين كمواطنين :

— « والحل إذن ؟ »

— الحل الجذرى ستفرضه حركة التاريخ والتطور الثورى لمنطقتنا وللعالم كله . فالزمن معنا . ونحن نسير كمائة مليون عربى فى طريق الثورة التقدمية من أجل التحرر الكامل من الاستعمار ، والاشتراكية والوحدة .. ونحن نكسب كل يوم ، شعوباً وأصدقاء جدداً فى العالم يكتشفون حقيقة إسرائيل كقاعدة عنصرية وعدوانية حتى بالنسبة لهم . . غينيا وسيكوتورى . . مالى وموديبوكيتا . . إلخ . ولم نعد نحن تلك الكتلة البشرية المستعمرة المتأخرة ذات الأنظمة الإقطاعية ، والتى كانت إسرائيل تصور نفسها وسطها كنموذج للحضارة والتقدم الأوربى. وإنما أصبحنا كتلة إنسانية متحركة تتحرر من الاستعمار والإقطاع والاستغلال ، وتتطور اقتصادياً واجتماعياً وتبنى مجتمعات متقدمة جديدة وتسير على طريق الاشتراكية ، كما فى مصر أكبر البلاد العربية نسبياً . ولعل هذا هو السبب الرئيسى لتركيز الحملة الصهيونية على مصر وناصر .

ومسح رسل وجهه براحة يده وهو يقول :

ــ « المشكلة معقدة » .

قلت :

ــ معقدة ، طالما ظل للاستعمار نفوذ فى المنطقة ، ولكنها تصبح سهلة بزوال النفوذ الاستعمارى . . وهذا النفوذ قد أصبح عمره قصيراً بحكم حركة التاريخ .

ولم يعقب « رسل » بشىء . غاب عنا بعض الوقت سارحاً مع نفسه من جديد . وحينما عاد ، طرحت عليه السؤال التالى :

ــ ما هو المفتاح الرئيسى فى رأيكم لقضية السلام فى عالمنا اليوم ؟

وتريث قليلا وهو يمسح جبهته العريضة براحة يده قبل أن يقول :

ــ « الإجابة عن هذا السؤال سهلة للغاية ويمكن تلخيصها فى العبارة الآتية : " العمل المستمر من أجل السلام دون أن يداخلنا اليأس لحظة واحدة " . ولكن الصعوبة الحقيقية هى فى كيفية العمل وأسلوبه من ناحية ، وفى كيف نحصن نفوسنا البشرية ــ أفراداً وجماعات ــ من جرثومة اليأس من ناحية أخرى .

إن ثمة حقيقة أولية يجب أن تنفذ أولا وبعمق إلى الإنسان

ومؤسسات حياته المختلفة ، ابتداء من الأسرة والمصانع حتى الأحزاب والدول والحكومات ، وهى أن كل ما هو إنسانى فى عالمنا ـــ أياً كان لونه أو دينه أو اتجاهه أو ثقافته أو ذوقه أو وضعه ـــ سيكون مصيره الدمار التام والشامل ، إذا ما اشتعلت الحرب النووية .

وخطر هذه الحرب كامن وعلى وشك الانفجار فى أى لحظة ، طالما ظلت الكراهية تصوغ وتلون العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الدول بعضها وبعض . وإذا ظلت الأسلحة النووية تنتج بلا توقف ، وتتطور باستمرار وتتكدس فى المخازن ، وتغدو رصيد قوة فى أيدى حكام بعض الدول .

وإذا ظلت « الثقافة » تفهم وتدرس على أساس عنصرى ، أو على أساس التفريق بين الشعوب ، لا وحدتها . ومن هنا فإن العمل من أجل السلام يجب أن يستهدف القضاء على الكراهية وعلى الأسلحة النووية جميعها ، وعلى الأساليب غير الإنسانية للثقافة . ولن نستطيع العمل إلا إذا كان داخل كل بلد ، وبالتالى على محيط العالم كله ، رأى عام قوى متحرك ضد الحرب والعنف والكراهية والعنصرية .

إن هذا الرأى العام سوف يقيم فى كل بلد حكومة ديمقراطية تؤمن وتنتصر للسلام كوسيلة وهدف معاً ، ويعزل عن السلطة

كل المغامرين وأصحاب المصلحة فى الحرب . . والمجانين السياسيين أيضاً .

ولتكوين هذا الرأى العام ، نحن فى حاجة إلى الوعى بضرورة المبادرة بتدريس التاريخ الإنسانى بصورة ومضمون موحد ومتفق عليه فى كل بلد ، تقوم بوضع برنامجه وخطوطه لجنة دولية مشتركة موحدة . إن هذا الفهم الواحد للتاريخ الإنسانى سوف يكون الأساس الضرورى لبناء رأى عام عالمى موحد الاتجاه نحو السلام والأخوة الإنسانية » .

— ولكن . . .

وقاطعنى رسل بسرعة قائلا :

— « أعلم مقدماً ما وراء " لكن " هذه . . اعذرنى . لقد سمعتها كثيراً بأكثر من لغة وبأكثر من معنى : لكن هناك صعوبات . . لكن هذا المشروع خيالى . أعلم هذا وأفهمه . ولكن ما لا أفهمه هو أن نكتفى بذكر هذه الصعوبات التى أعترف بوجودها ، وبذكر الطموح الكبير فى مشروعى والذى لا أنكره . ولكن ما هو جوهر العمل إذن ، إذا لم نتصد للصعوبات ونتغلب عليها ونحلها . والمشكلة هى بالدقة فى هذه

الصعوبات ، لأنه إذا لم تكن هذه الصعوبات قائمة فإن المشكلة نفسها لم تكن لتوجد . لقد أتاح لى عمرى والأحداث ، أن أمر بتجارب عديدة وبممارسة مهن متعددة منها التدريس فى الجامعة والكتابة فى الصحافة وتربية النشء الصغير . وأستطيع أن أقرر لك دون مبالغة أن أهم وسيلة للتربية الإنسانية ، المحصنة من الكراهية وعبادة المال واضطهاد الناس بعضهم لبعض ، هو توحيد رؤيتهم منذ الصغر لتاريخهم الإنسانى .

لقد سبق أن اقترحت من قبل ضرورة قيام مؤسسة عالمية تضم جميع الدول من أجل التفاهم بينها وبين بعضها لحل المشكلات . وقيل يومها أيضاً . . ولكن الصعوبات ! ولكن هذا خيال ! واليوم ! استطاعت الإنسانية أن تخلق منظمة الأمم المتحدة ومن قبلها عصبة الأمم .. صحيح أن الممارسة ليست فعالة بالدرجة المطلوبة حتى الآن ، ولكن نواة المؤسسة العالمية قد بذرت فى الحقل الدولى ونبتت بالفعل » .

كانت كلمات « رسل » مشحونة بالحرارة بدرجة أشعرتنى بسخونة الجو فجأة رغم عاصفة الرياح الباردة التى كانت تعوى فى الخارج فوق بحر الشمال . وأحسست بدفء حرارة « رسل » يسرى إلى عقلى وقلبى فقلت :

. أعتقد هنا ، أنه يمكن للأدب والفن فى المجتمعات الإنسانية أن يلعبا دوراً هامـّا .

وابتسم رسل ابتسامة خفيفة قائلا :

— « ربما . ولكنه دور غير أساسي . . دور مساعد فقط . أنا شخصيـًا أحب الأدب والفن . ولكنهما لا يؤثران تأثيراً مباشراً فى ميدان السياسة .

والعمل المطلوب اليوم هو العمل السياسى . قد يمكن استغلال الصحافة كرأى وخبر فى هذا الصدد لأنها غدت مع انتشار التعلم وسيلة سياسية قوية جداً ، لأنها تحشد وتعبئ الرأى العام حول عمل معين أو موقف محدد . أما الأدب والفن فهما لا يوجهان السياسة والعمل السياسى وإلا أصبحا مباشرين ، وبالتالى فقدا اعتبارهما كأدب وفن . ولكنهما بالطبع يعكسان مفهومات سياسية بدرجات متفاوتة . وفى العمل السياسى ، أنت تريد الوسيلة التى تؤثر وتوجه مباشرة ، لا الوسيلة التى تعكس وتصور بحيل أدبية وفنية غير مباشرة . إن أقصى ما نستطيع أن نطلبه من الفنانين والأدباء هو أن يقاوموا بأعمالهم روح الكراهية والتأخر والاستبداد بالإنسان بصفة عامة » .

— ولكن . . أرجو أن لا تزعجك « لاكناقى » هذه . .

نجد أديباً مثل سارتر مثلا يتخذ من الكلمة الأدبية سلاحاً ، وموقفاً سياسياً تقدمياً . ولماذا أذهب بعيداً أنت مثلا ؟

– « لا . إن سارتر لا يتخذ مواقفه السياسية التى أحترم الكثير منها ، بصفته أديباً ، وإنما بصفته سياسياً . إن كلمته هنا لا توزن بميزان أدبى أو فنى وإنما بميزان سياسى لأنها مباشرة وصريحة . أما أعماله الأدبية والفنية فهى غير مباشرة ، قد تعطى انطباعاً عاماً لدى القارئ بموقف معين ، ولكنه لا يستفزه ولا يعبئه لاتخاذ هذا الموقف عملياً » .

– بهذه المناسبة ما رأيك فى الفلسفة الوجودية . . لقد أتيح لى أخيراً أن أقرأ قصتك القصيرة عن كابوس الفيلسوف الوجودى ؟

وأطلق رسل ضحكة عالية الرنين ، قبل أن يقول :

– « إذا كنت قد قرأتها فلا بد أنك عرفت رأيى . ومع ذلك فأنا صادقاً حاولت أن أفهم الوجودية وفشلت . وفى رأيى المتواضع أن لا علاقة لما يسمونه بالوجودية بالفلسفة . وعموماً فإنى لا أميل الآن إلى ما يسمى بفلسفة المجردات . . إنها كلام وجهد لا معنى ولا فائدة حقيقية له » .

– والماركسية ؟

– « ليس موقفى منها هو موقفى من الوجودية مثلا . ولكنى

لا أوافق عليها بصفة مطلقة .

والذى يعنيني دائماً من كل فلسفة ليس فروضها أوقوانينها النظرية المجردة ، وإنما صدقها الواقعى فى التطبيق . إن تجربة الاتحاد السوفييتي حتى وفاة ستالين لم تكن مشجعة على الإطلاق. طبعاً الوضع تغير إلى أحسن جداً بعد ستالين .

والمشكلة الهامة فى هذا كله هو حرية الإنسان والديمقراطية ، وفى رأيى أن التطبيق الماركسى حتى الآن لم يستطع أن يؤمن حرية الإنسان . والديمقراطية ، ما برحت هناك ضغوط كثيرة فى هذا المجال من ناحية التعبير عن الرأى وممارسته . لقد حلت مشكلة لقمة العيش بالنسبة للإنسان ، أو هى على الأقل فى طريقها إلى الحل فى المجتمعات الشيوعية . ولكن لم تحل بعد ، بدرجة مقبولة إنسانياً ، مشكلة لقمة الحرية . ولست أطلب هنا حرية زائفة أو ديمقراطية صورية ، كما هى الحال فى المجتمعات الرأسمالية . ولكنى أطلب ببساطة أن تلغى كل الضغوط السياسية على حرية الرأى والتعبير للإنسان ، كما ألغيت أو تلغى نظم الاستغلال لحياة الإنسان المادية .

وأعتقد أن تجارب جديدة ، مثل تجاربكم ، يمكن بما اختزنته من آلام فظيعة للإنسان ثارت عليها ، أن تقدم مساهمة

إيجابية لحل هذه المشكلة التى يتوقف عليها — فى رأيى — مستقبل الإنسان وعلمه على السواء . . »

— كيف تتصورون هذا عمليًّا ؟

— « لا أستطيع ولا أملك بالطبع أن أحدد أشياء وعلامات قاطعة . ولكنى على الأقل أقول إنكم تصعدون بدم جديد ، ومشاكل جديدة ، وإصرار جديد ، إلى المجتمع الإنسانى . وفى هذا المجتمع الإنسانى تنظرون ، يميناً ، فيهولكم زيف وخداع الديمقراطية التى يسيطر عليها عبادة المال ونفاق واستغلال القلة الأرستقراطية . وتنظرون ، يساراً ، فيهولكم ما تعرض له الإنسان فى المجتمع الشيوعى من قسوة وجبر وإهدار تحت الحكم الستالينى . وأنتم بذلك تملكون — وعجينة المجتمع فى أيديكم ما تزال طازجة وطرية للتشكيل — أن تتجنبوا على الأقل عيوب ونواقص وأخطاء اليمين واليسار الستالينى . وهذه ميزة وقدرة لم يتوافرا من قبل لأحد . . ترى هل كنت واضحاً بالدرجة الكافية فى الإجابة عن سؤالك ؟ »

— تماماً . ولعل هذا ، إذا سمحتم لى ، يقودنى إلى سؤال آخر أرجو أن يتسع له صدرك وهو : إذا أردت أن أقيم « برتراند رسل » اليوم وأحدد منهجه الفكرى وموقفه الاجتماعى فما هى

الخطوط العامة لهذا التقييم ؟

وأطرق رسل برأسه قليلا ، وتحركت على فمه ابتسامة تواضع تروح وتجيء هنا وهناك بين قسمات وجهه ، حتى افترشتها تماماً ثم قال :

— «لا أدرى ماذا أقول لك . فالإنسان يستطيع أن يحدد من الأحداث الجارية موقفاً ، ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يقيم نفسه بنفسه موضوعياً . ومع ذلك فأعتقد أنى كنت وما زلت مؤمناً وممارساً لشيئين ، أولهما الإيمان بالعلم منهجاً وأسلوباً ، وهذا قادنى دائماً إلى احترام العقل الإنسانى وحريته فى التصدى للحياة ومشاكلها ومقدساتها ومسلماتها دون ما حدود . وبدون هذا فإننا نرتد من جديد إلى الحيوانية . وأذكر لك هنا ما كتبه (فولتير) إلى صديقة (جان جاك روسو) بعد أن قرأ كتبه قائلا : (بعد أن قرأت كتبك أيها الصديق أحسست أنى تحولت إلى حيوان يسير على أربع ، ولكنى لما كنت قد ابتعدت منذ زمن طويل عن هذه العادة فإنى أجدها صعبة على جداً) . هذا هو الإنسان الذى يحكم العقل ويطلقه باستمرار لغزو المجهول .

أما الشيء الثانى ، فهو أنى أومن إيماناً لا يتزعزع بضرورة

أن يعيش الإنسان حراً وقادراً على الإبداع . ولن يستطيع ذلك دون تحقيق حياة السلام والأمن له باستمرار . أما موقفى الاجتماعى فإنى أعتبر نفسى اشتراكياً ، أعادى عبادة المال واستغلالها ، لا على أساس اقتصادى فحسب ، بل على أساس أخلاقى أيضاً . ولهذا فإنى أربط الاشتراكية ربطاً عضوياً بحرية الإنسان أمام سلطان الدولة أياً كانت .

ولكن موقفى الاشتراكى اجتماعياً ، لا يمنعنى لحظة أو يحول بينى وبين التعاون المخلص والصادق مع غير الاشتراكيين فى العمل من أجل السلام العالمى . فالقنبلة النووية ، سواء أكانت أمريكية أم روسية لن تفرق فى ضحاياها بين الرأسماليين والاشتراكيين . ومن هنا فالسلام مطلب وحق إنسانى شامل يعلو على كل المواقف والصراعات والأجناس والقوميات ».

قلت :

– هل يمكن أن أعتبر هذا التقييم حيثيات نظرية لانسحابك من عضوية حزب العمال أخيراً ؟

– « أعتقد ذلك . ولقد آلمنى كثيراً أن أترك الحزب . ولكن قياداته المتعاقبة وبعض الكتل المسيطرة عليه أرغمانى على اتخاذ هذا الموقف إزاء عدم إمكانية الإصلاح من الداخل . إن

الحزب لم يساوم فى مواقفه السياسية فحسب ، سواء فى الصعيد الداخلى أو الدولى ، وإنما حتى فى فكرياته . وبريطانيا تحت حكم العمال ، لا تختلف إلا من حيث الأسماء والوجوه ، وهى تحت حكم المحافظين . فلا تغيير اشتراكى جذرى فى الداخل ، وإنما مجرد مسكنات مؤقتة . وفى الخارج فنحن لا نبرح مكاننا التقليدى كقوة استعمارية ، انظر موقفنا من الجنوب العربى مثلا ومن فيتنام ومن التسلح النووى .

« كل التغير الذى حدث ، هو أننا بعد أن كنا قوة استعمارية قيادية أصبحنا قوة استعمارية تابعة . إننا الآن مجرد عجلة فى عربة سياسة العنف الأمريكية . وعلينا أن نأمل ونعمل لحزب بريطانى اشتراكى حقيقى فى المستقبل . . وليكن المستقبل القريب قبل أن تضيع الفرصة » .

كانت « الصغيرة أديث » قد جاءت ووقفت بعتبة الباب دون ما كلمة . ولكنى أحسست من نظراتها المتبادلة مع « شومان » أن الوقت قد تأخر « برسل » . وألقيت نظرة على ساعتى ، فإذا بها قد تجاوزت التاسعة مساء . وفهمت أن جلستى مع هذا المفكر العظيم قد بلغت لحظة النهاية . فقلت له :

لا يزال فى جعبتى أسئلة كثيرة لم أطرحها بعد . ولكنى

أخشى أن أكون قد أثقلت عليك واعتديت على نظام يومك الذى يرجع ولاشك إلى المربية الألمانية صديقة بلادنا .

وابتسم رسل قائلا فى تواضع بشوش :

« لا . . نظامى الآن من نوع آخر لأنه من صنع صغيرتى أديث . لقد سعدت بلقائك وأشكرك على صبرك معى .

سوف أنتظرك مع أسئلتك التى لم تطرحها فى اللقاء القادم . ستجدنى هنا أو فى لندن ، لا تخشى شيئاً ، لقد بلغت الثالثة والتسعين حقًّا ولكن العمل من أجل السلام والثقة فى المستقبل والإنسان ، يجعلانى فى صحة من لم يتجاوز الثالثة والعشرين . . صدقنى إن هذا هو الإكسير الحقيقى لإطالة العمر . جربه وسترى النتيجة ، وانصح به غيرك دون تردد . . إلى اللقاء إذن » .

ونهض الرجل ، يجمع حاجاته : البايب . . علبة الكبريت . . كتابان . . مخطوط مارك لين عن مصرع كيندى . صافحته بيدى وعينى ، وهو يخطو بثبات وقامة معتدلة ، تاركاً غرفة الصالون بالدور الأرضى إلى الدور العلوى وهو يضع بحنان ذراعه على كتف صغيراته « أديث » .

وهمس « شونمان » فى أذنى : ما رأيك فى رسل ؟

قلت بعد لحظة صمت :

— شاب فى الثالثة والتسعين تشغله هموم المستقبل ، كما لا تشغل شيخاً فى الثالثة والعشرين .

٢

حوار مع « جان بول سارتر »

(يونيو ١٩٦٧)

استدار نحوى فجأة الأستاذ البروفسير « جاك بيرك » الأستاذ بالكوليج دى فرانس ، والذى يقود مع زميله البروفسير ، « مكسيم رودنسون » حملة تنوير شجاعة داخل الرأى العام الفرنسى خاصة ، والأوربى عامة ، لتبديد الضباب الصهيونى الاستعمارى الكثيف حول « القضية الفلسطينية » وقال لى :

— هل قابلت سارتر ؟

— لا . . .

قلتها باقتضاب ، وأنا أحس بالكلمة تكاد تلهب حلقى . كنت قد قرأت البيان الذى صدر عن سارتر ، قبل العدوان فى جريدة الموند ، وأنا فى طريقى من الجزائر إلى باريس . ولاحظت أنه وقع على البيان مع عدد من الفرنسيين من بينهم شخص يدعى « مزراحى » وصفه لى هو نفسه ذات يوم بأنه

« صهيونى حتى أطراف أصابعه » .

وصحيح أن البيان حوى بعض الكلمات الطيبة عن العرب .

وصحيح أن سارتر نفسه – كما علمت بذلك من بيرك – هو الذى أضافها ، وأنه كان متردداً حتى آخر لحظة فى توقيعه ، ولكن ذلك كله لا ينفى أن البيان فى مجمله وفى الجو الهستيرى المعادى للعرب وقتذاك ، قد احتسب فى النهاية لصالح إسرائيل وادعاءاتها بأنها مهددة بخطر العدوان العربى المتجمع ضدها فى « وحدة صليبية » . وليس أدل على ذلك من أن الإذاعة الإسرائيلية ظلت تذيع البيان لمدة يومين بمعدل سبع مرات كل يوم !

ولذلك عندما عاد « جاك بيرك » يقول لى :

– ولكن لماذا لا تقابله . . إنه يسأل عنك . . ماذا ستخسر ؟

أجبت : لقد اختار هو ببيانه موقفاً محدداً هو أن نخسره .

– لا . . ليس إلى هذا الحد . . هل تعلم أنه فى حالة تمزق داخلى عميق .

وسكت ولم أجب بحرف . وإن ظل رأسى يموج بعلامات الاستفهام المتلاطمة : كيف يمكن لرجل أمين وشجاع أن لا



يرى وجه الحقيقة فى الصراع ؟ كيف يمكن لرجل اشتهر بمواقفه من أجل الحرية أن يتخذ موقفاً مضاداً منها عندما يتعلق الأمر بإسرائيل ؟ تحت أى تأثير ووفق أى معلومات وقع « سارتر » هذا البيان جنباً إلى جنب مع ذلك الصهيونى حتى أطراف أصابعه؟ ألم يزر الشرق الأوسط ولمس بنفسه الأوضاع على الطبيعة وأقر بحقوق الشعب الفلسطينى القومية ؟

وتتابعت الأيام الهادرة العصبية ، ووقع العدوان ، وامتلأت الصحف بالزيف، ثم راح الضباب الكثيف ينقشع هنا وهناك عن لمحات من التواطؤ الصهيونى الاستعمارى ، وعن حملات الإبادة العنصرية ضد العرب ، وعن قنابل النابالم إلخ .. وأخذت الأضواء تكشف جوانب من الصورة الإسرائيلية التى تقطر دماً وبشاعة .

وفكرت للحظات أن أتصل بسارتر وأقول له كلمة واحدة : ها هى نتيجة بيانك . . ولكنى عدلت ونشرت « بجريدة الموند » بعد وقوع العدوان ، باسم هيئة تحرير « الطليعة » خطاباً مفتوحاً إلى « المثقفين اليساريين الفرنسيين الذين بطريقة أو بأخرى اتخذوا مواقفا فى صالح إسرائيل » .

وقلت فى هذا البيان : « إن الأحداث قد أثبتت مرة أخرى أن إسرائيل قد بادرت بالعدوان المبيت على الشعوب العربية .

وإنه لم تكن سوى أكذوبة تلك الادعاءات التى هولت لها إسرائيل ، بأنها مهددة من جانب الشعوب العربية بحملة إبادة عنصرية معادية للسامية . . هذه العنصرية التى كنا ولا زلنا دائماً ندينها رغم أن العدوان قد أغرق القضية كلها فى الدم الآن. وإن إسرائيل لم تكن لتقدم على عدوانها بكل هذه القوة ما لم تكن مؤيدة ومساعدة من الإمبريالية بحكم كونها امتداداً للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط . وإنكم بمواقفكم هذه قد ساهمتم فى تشجيع إسرائيل والإمبريالية على العدوان . . فماذا أنتم فاعلون الآن تجاه هذه المسئولية » ؟

واتصل بى سارتر يدعونى على الغداء لنتكلم . وقبلت الدعوة. وعندما تقابلنا بادرنى بعتاب :

ـ « كيف تكون هنا فى باريس منذ أول يونيو ولا تحاول الاتصال بى ؟ »

قلت :

ـ لأنك اتخذت موقفاً ضد نضال الشعوب العربية .

وهاج سارتر وماج :

« ما هذا الذى تقوله ؟ . وأى موقف ؟ إن الموقف الذى اتخذته كان ضد الحرب . . الحرب فقط من حيث المبدأ .

إنى لم أغير موقفى قط فى تأييد نضال الشعوب العربية من أجل التحرر والتقدم بما فى ذلك الشعب الفلسطينى ، وعلى الأخص الشعب المصرى الذى أكن له ولقيادته كل الإعجاب والاحترام، كل ما أنا ضده هو الحرب كوسيلة » .

وتدخلت « سيمون دى بوفوار » فى الحديث متطرقة إلى موضوع إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن الإسرائيلية، وكيف أنه اعتبر لدى الرأى العام الأوربى نوعاً من الاستفزاز للحرب . فتدخلت شارحاً لها حقيقة الوضع ، وكيف أن هذه المياه إقليمية تدخل كلها وفقاً للقانون الدولى فى نطاق السيادة المصرية، وأن هذه السيادة قد انتزعت بالقوة من مصر خلال عدوان عام ١٩٥٦ الاستعمارى الصهيونى الثلاثى . وكيف أن « إيلات » نفسها قد استولت عليها إسرائيل بعد اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية فى ٩ مارس عام ١٩٤٩ من الجانب الأردنى . وأنها كانت دائماً عربية باسم بلدة « أم الرشراش » . إن كل ما حدث هو استرداد جزء من حقوقنا المهدرة . .

وارتج على « دى بوفوار » ، وأرسلت نظرة تساؤل إلى سارتر الذى أجاب بدوره بنظرة يتبعها صوت متعب :

— « هذا صحيح قانوناً . . لقد عرفت ذلك أخيراً . . »

وصاحت سيمون دى بوفوار :

ــ لماذا لم توضحوا ذلك . . لماذا لم تشرحوه للرأى العام هنا .

وقلت :

ــ هذه فعلا بعض أخطائنا . . وأنا أعترف بها . ولكن حتى لو شرحناه ، فهل نجد مجالا واسعاً هنا فى هذه الصحافة التى تسيطر على معظمها القوى الصهيونية والعداء العنصرى للعرب؟

ودار حديث طويل حول هذه النقطة . وعاد سارتر يقول :

ــ « لقد شرحت لك موقفى ، والظروف التى صدر فيها ومن أجلها البيان الذى وقعت عليه . فهل يساعدك ذلك على فهم الوضع ؟ »

قلت :

ــ بصراحة . . . لا

وهز سارتر رأسه مفكراً قليلا ثم قال :

ــ « اسمع ! لماذا لا نتفق على موعد لحوار شامل . أنا حريص فعلا على توضيح موقفى للأصدقاء العرب » .

ــ ونحن العرب نشاركك نفس الحرص ، حتى نكون على نور فالمعركة ما برحت مستمرة .

واتفقنا على لقاء فى الغد بمنزله .

وكان أول سؤال طرحته على سارتر ونحن جالسان فى حجرة مكتبه الصغيرة التى تقوم فى نفس الوقت بمهام الاستقبال والطعام والمبيت ، هو :

— لاحظت أنك قد التزمت الصمت التام منذ بيانكم عن الموقف فى الشرق الأوسط الذى صدر قبل بدء العمليات الحربية والعدوان . . هذا البيان الذى اعتبر أنه معاد للعرب ، واستغلته إسرائيل ، كما تعلم ، بهذا المعنى ؟

وتريث سارتر لحظات قبل أن يشرع فى القول :

— « يسرنى أن أخرج الآن عن صمتى ، وذلك بتوجيه حديثى للمصريين والعرب عامة . وأن أنتهز هذه الفرصة لكى أبدى رأيى فى المشكلة . كان الهدف من هذا البيان ، الذى تتحدث عنه ، هو محاولة منع وقوع الحرب . لأن الحروب فى نظرى ليست أبداً بحلول سليمة أو إنسانية للمشاكل . وكما تعلم فقد ابتعدنا الآن للأسف أكثر من أى وقت مضى عن الوصول إلى حل . ولم يكن القصد من هذا البيان هو خروجى من حياد كنت أرغب فى الالتزام به وقتذاك ، نظراً لأن العدد الخاص من مجلة « الأزمنة الحديثة » عن النزاع العربى الإسرائيلى كان على وشك الصدور بعد ذلك بأيام معدودة . كنت فقط أريد

أن أشير إلى أننى كنت آمل فى إيجاد تسوية للمشكلة التى ثارت بعد إغلاق خليج العقبة ، تعتمد على التفاوض بدلا من اللجوء إلى العنف .. ولا ينبغى بأى حال من الأحوال أن يعتبر هذا البيان معادياً للعرب . فإننى أصر على أننى كنت وما زلت وسأكون دائماً ، حليفاً للشعوب العربية وصديقاً لها : وإذا كنت قد التزمت الصمت إلى الآن فهو بالدقة لأنه لم يتح لى فرصة مخاطبة العرب مباشرة . أنت تتيح لى هذه الفرصة اليوم وأشكرك لذلك » .

وقدمت ملاحظتى الثانية فى شكل السؤال التالى :

— لقد لاحظت أن هناك اتجاهاً عامًّا فى فرنسا — تحت ضغط الصهيونية العالمية ودعايتها — يرمى إلى تصوير النزاع العربى الإسرائيلى على أنه نزاع بين اليهود والعرب . مع التركيز على أن طبيعة هذا النزاع دينية بحتة من جانب العرب . ويستند هذا الاتجاه إلى تعريف العرب بأنهم المسلمون فقط . وهذا غير صحيح كما تعلمون . فالشعب العربى وهو يشكل فى الأساس كياناً قوميًّا من مختلف الديانات يناضل ضد الصهيونية فى إطار نضاله العام ضد الاستعمار والتخلف والاستغلال . إن طرح القضية على أرضية دينية يؤدى إلى تشويهها . وقد انتشر هذا التشويه

حتى فى بعض الدوائر اليسارية هنا . . فما هو رأيكم فى ذلك ؟ .

قال سارتر :

— « يجب أن أؤكد أولا أننى رأيت عرباً ليسوا مسلمين . هذا صحيح فعلا . ومن هنا فأنا لا أوافق على اعتبار المشكلة مشكلة دينية . كذلك قال لى الرئيس جمال عبد الناصر فى مصر : كيف " تنتظر منا أن نكون معادين للسامية ونحن أنفسنا ساميون ؟ " . وإذا صح أن ثمة يهوداً خلال احتدام المعركة الحربية قد نظر إليهم مؤقتاً على أنهم ممثلون لإسرائيل كما حدث فى تونس مثلا ، إذا أحرق الشعب هناك المعبد اليهودى ، إلا أن هذا فى تقديرى ليس إلا عملا انفعاليـًا . ولا ينفى أن المشكلة الحقيقية هى فى جوهرها مشكلة العالم المتخلف الذى يناضل ضد الاستعمار ومن أجل تحسين الظروف المعيشية للشعب . بل من أجل بناء الاشتراكية . ولذلك أعتقد فى الحقيقة أن حدوث مثل هذا اللبس بهذه الصورة يعد أمراً فى غاية الخطورة. طبعاً وجد من الجانبين عناصر رجعية نادت بالحرب المقدسة ، ولكنى أعتقد أنه لا ينبغى تفسير الظاهرة على هذا الأساس » .

وعدت أقول :

— إنى فى الواقع أريد منك أن تفسر لى هذه الظاهرة

الملموسة والمتحركة فعلا هنا في المجتمع الفرنسي بالذات . هل هي أيضاً قائمة في رأيك وتسهم في التشويه والتضليل أم لا ؟

وأشعل سارتر سيجارة ببطء ، أغلب الظن ليعطي نفسه فرصة لترتيب أفكاره ، قبل أن يستطرد قائلا :

— « صحيح يوجد فعلا اتجاه هنا في فرنسا يرى المشكلة من هذه الزاوية . ولكن لعلك لاحظت أن الرأى العام قد تغير كثيراً عما كان عليه عند بداية الأزمة . لقد اعتقد عدد كبير من الناس ذوى النيات الطيبة — نظراً للتباين الواضح في نوعيات المواطنين من هذا الجانب أو ذاك ، وبحكم ما كانوا يقرءونه كل يوم — أن الحرب سوف تبدأ من العرب وتنتهى بتحطيم سريع ومؤكد لإسرائيل وإبادة اليهود هناك . وقد أثار ذلك شعوراً بالقلق العميق لدى الرأى العام في فرنسا ، بصورة معقدة وعلى مستويات متباينة . وذلك سواء من عناصر لم تكن تناصر إسرائيل إلا لعدائها للعرب ، وأخرى كانت تعطف بصدق على العرب والإسرائيليين معاً . ومن المؤكد أن فرنسا انفعلت لهذه الأحداث بقوة . ولكن من المؤكد أيضاً أننا تبينا أن المشكلة كانت تنطوى على جانب آخر . . لقد ثبت أن إسرائيل تملك جيشاً حديثاً معداً إعداداً جيداً وأنها كانت متأهبة للهجوم فعلا . .

وهاجمت وحطمت واحتلت . ولست أشك فى أنك توافقنى على أن الرأى العام الفرنسى قد بدأ يتغير منذ ذلك الوقت . ولكن فيما يتعلق بنفسى فرأيى لم يتغير على الإطلاق . إننى لم أكن أرغب بالفعل أن تقوم حملة إبادة ضد اليهود . ولكنى أرى الآن أنه يتعين الوقوف بجانب العرب لنناقش معهم ومن وجهة نظرهم عدداً من المشكلات ذات الأهمية القصوى مثل الاتجاه التوسعى لإسرائيل ، الذى قد لا يكون موقف جميع الإسرائيليين ، ولكنه على وجه التأكيد اتجاه عدد من الرجال المتربعين فى السلطة حالياً مثل ديان ، وكذلك للمطالبة بحل للمشكلة الفلسطينية . وهناك قضية أخرى قد لا يشعر بها العرب بسبب أن موقفنا قد فهم خطأ ومس مشاعرهم . . وقد أثيرت اليوم حتى — من الصحف اليمينية — وهى أنه "يجب التعرض لأساس المشكلة". وهذا هو الجانب الإيجابى وراء كل أحداث العنف . ومنذ وضحت هذه الحرب فى الأفق برزت المشكلة الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى القومية .. وهى مشكلة كانت غالبية الناس هنا تجهلها لأنه لم تكن لديهم أيه معلومات عنها .. » .

— قيل لى إن ٧٠٪ من الشعب الفرنسى لا يعلم أن هناك مشكلة أكثر من مليون لاجئ فلسطينى مطرود من وطنه .

— « طبعاً . . وكيف تتوقع منهم أن يعلموا بهذا الأمر؟ »

— ولكن من هو المسئول عن هذا التجهيل المتعمد للقضية؟

— « الحكومة والصحافة معاً. فلا يجب أن ننسى أن قطاعاً واسعاً من الرأى العام الفرنسى قد احتفظ به فى حالة عداء للعرب بعد عام ١٩٥٤ بسبب حرب الجزائر . هناك مجموعة كبيرة من الناس تقول إن مصر ساعدت الجزائريين . وقد نظر إلى النزاع العربى الإسرائيلى من هذه الزاوية بالذات ، ونسيت تماماً مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . وفى تقديرى أنه لا بد من زيارتهم — كما فعلت أنا — ليتبين إلى أى حد أصبحت هذه المشكلة عاجلة وملحة » .

وتطرقت فى حديثى إلى الجانب الآخر من القضية التى أثارت مع الصهيونية والاستعمار ثلاث حروب خلال أقل من عشرين عاماً ، وما زالت هادرة ساخنة تزداد تعقيداً وغرقاً فى الدم ! . . قلت :

— أنت تعلم أن مشكلة العداء للسامية مشكلة أوربية بحتة. وهى مشكلة لم تعرفها البلدان العربية فى تاريخها القديم والمعاصر قط . نعم . . هناك مشكلة يهودية لا ريب فى ذلك نشأت بسبب اضطهاد اليهود فى أوربا . هل تعتقد أن الحل الذى تتقدم

به الصهيونية العالمية ، وهو حل قائم على العنصرية والتعصب الديني ومرتبط بالاستعمار ويستهدف إقامة دولة ، خدمة لكل هذه المصالح .. هل يمكن أن يكون هذا حلا إنسانياً وديمقراطياً للمشكلة اليهودية فى العالم . . مع العلم أن هذه الدولة لكى تقوم وتعيش طردت شعباً كاملا من أرضه ؟

– « أعتقد أن هناك اتجاهين للصهيونية الآن . أحدهما يقول : سنقبل اليهود الراغبين فى الحضور فقط . والآخر يقول : سنجلب اليهود بالدعاية إلى الدولة اليهودية . فى حين أن الوجه الأول للصهيونية والذى يسمى أيضاً "بالنداء الصهيونى" لا يمكن اعتباره اليوم خطراً ، إذ لا يتضمن اتجاهات توسعية . أما الوجه الآخر ، وهو الذى يمكن اعتباره الصهيونية الإيجابية العاملة ، يشكل بعكس الاتجاه الأول خطراً ضخماً . وبرغم أنى أعتقد أن الـ ١٢,٥ مليون يهودى المقيمين خارج إسرائيل ، تكيفوا مع الحياة خارج أوطانهم وترتبط مصالحهم بالبقاء فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ويفضلونها على الذهاب إلى إسرائيل ، إلا أن هذا الاتجاه الذى يمثل الصهيونية بالمعنى الدقيق للكلمة ، والذى يستهدف إحضار أكبر عدد ممكن من اليهود إلى إسرائيل ، والبحث فى سبيل تركيز عدد كبير جداً من

الناس فى مساحة ضيقة للغاية لا يمكن إلا أن ينطوى على أهداف توسعية . فلا يمكن ل ١٥ مليون يهودى أن يعيشوا فى أرض فلسطين وحدها » .

ورفعت يدى هنا قائلا :

ــ إن ما تقوله عن اختلاف بين اتجاهين فى الصهيونية ليس إلا اختلافاً فى الوسائل والتكتيك فحسب ، ولكن يبقى جوهر الصهيونية ، وهو فى قيامه على العنصرية والتعصب أساساً .

وهز هو رأسه على الفور مجيباً :

ــ « من الواضح أن دولة إسرائيل تتشكل فقط من يهود . هذا صحيح . بل أكثر من ذلك لا يمكن فى إسرائيل أن تتزوج فتاة غير يهودية من يهودى إلا إذا تهودت . فالدولة إذن دولة مشكلة من يهود فقط . ولكن فيما يتعلق بهذه النقطة فالمشاكل متداخلة ومشوشة بدرجة أنه يصعب إيجاد إجابة شافية سليمة . فهناك يهود غير صهيونيين فى إسرائيل ، وهم يريدون بقاء إسرائيل فقط لأنهم يشعرون بأنها أمتهم . وهناك يهود صهيونيون أعرفهم فى الجناح اليسارى داخل حزب المابام ، ولا تنطوى كلمة الصهيونية على مدلول خاص عندهم . إنها مشكلة فى غاية التعقيد . وهناك داخل العناصر اليسارية حركة قوية لمناهضة

الجوانب الدينية فى الصهيونية وفى مؤسسات الدولة . فمثلا ، عدد كبير من الإسرائيليين يقفون ضد الإجراءات الدينية التى تؤدى إلى وقف القطارات والأوتوبيسات يوم السبت ، وضد منع الزواج بين اليهود وغير اليهود إلخ .. وهناك صراع لا يجب التقليل من شأنه بين العناصر الصهيونية المتزمتة وبين بعض العناصر اليسارية المضادة للصهيونية . . ولكن للأسف القوى العسكرية والدينية المتعصبة والرجعية هى القوى المسيطرة فى إسرائيل فى هذه الظروف » .

وسكت سارتر عند هذا الحد فقلت له : إنه لم يجب عن سؤالى بالتحديد : — أنا أريد أن أعرف بالدقة رأيكم فى حل المشكلة اليهودية وهل الطريق الصهيونى الإسرائيلى ، هو الحل الموضوعى والإنسانى السليم ، وخاصة بعد أن زرتم إسرائيل ؟

وراح سارتر يردد مرات عبارتى « تريد أن تعرف بدقة » قبل أن يسترسل قائلا :

— « أنا أفهم ارتباط عدد من أصدقائى اليهود بإسرائيل . ولكن من الواضح مع وجود ١٢,٥ مليون يهودى خارج إسرائيل وعدم رغبة هؤلاء فى الهجرة إلى إسرائيل ، بينما لا يوجد داخل إسرائيل إلا ٢,٥ مليون يهودى . . أقول . . من الواضح أن

إسرائيل لا تشكل حلا للمشكلة اليهودية . لقد آمنت دائماً أن المشكلة اليهودية ، التي هي فى نظرى مشكلة يهودية مسيحية ، لن تجد حلا لها إلا داخل العالم اليهودى المسيحى ذاته . وأضيف أن هذا التناقض بين اليهود والمسيحيين هو الذى أنتج قوة الحضارة اليهودية وأفاد المسيحيين أيضاً. المشكلة إذن حلها فى التناقض بين اليهود والمسيحيين . . . »

— المسيحيون الأوربيون ؟

— « المسيحيون الأوربيون بالطبع بل الغربيون عامة . . فى أمريكا يوجد أيضا عدد كبير من اليهود . ولذلك أعتقد أن وجود ١٢,٥ مليون يهودى خارج إسرائيل ، و ٢,٥ مليون يهودى داخلها لا يمكن أن يجعل من إسرائيل حلا للمشكلة اليهودية . إن إسرائيل ليست حلا لمشكلة العداء للسامية . إن المشكلة اليهودية ينبغى أن تجد حلها حيثما يوجد اليهود . وينبغى علينا نحن الغربيين ، أن نناضل من أجل هذا الحل . أى فى المكان الذى لا يبحث فيه عن هذا الحل أبداً . ولكن أريدكم مع هذا أن تحاولوا النظر إلى المشكلة من زاوية الرؤية هنا فى الغرب . فإذا كنت أسلم بوجود إسرائيل ، فليس ذلك لأننى أعتبرها حلا للمشكلة اليهودية . ولكن بوصفها حقيقة إنسانية قائمة ،

تضم رجالا ونساء وأطفالا . . وهؤلاء الأطفال لا يفهمون شيئاً عن المشكلة . ومن هذه الزاوية فالقول بإبادتها لا يمكن إلا أن تثير الألم . ولكنى مرة أخرى لا أعتقد أن إسرائيل تحقق الحل للمشكلة اليهودية » . .

– ولكن إسرائيل دعى إليها وأنشئت بقوة السلاح كحل للمشكلة اليهودية فى الأساس ، وليس كمجرد واقع إنسانى لعدد معين من اليهود يلجأون إلى رحاب دولة ما هرباً من الاضطهاد . وترتب على ذلك مأساة إنسانية مروعة عند العرب . هنا جوهر الحقيقة الموضوعية .

– « أنت تعلم موقفى بشأن أثر إنشاء إسرائيل على العرب ، ولا أرى ضرورة تكرار ذلك الآن . وفى تقديرى أن الصهيونية كما تصورها "هرتزل" فى نهاية القرن التاسع عشر ، أى القائمة على فكرة إنشاء دولة يهودية فى القدس ، لم تكن جريمة بمقياس ذلك العصر . . لماذا ؟ لقد كانت حلا استعمارياً مثل كل الحلول الأخرى فى ذاك الحين . لم يكن أحد يفكر فى ذلك الوقت فى مصير الشعوب المستعمرة أو التى كان يفرض عليها الاستعمار بالانتداب . وكانت فلسطين تتبع فى ذلك الوقت الأتراك . فالذين تقدموا بذلك الحل وقتذاك كانوا يتقدمون

بحل يعكس معطيات عصرهم . . والكارثة هى أن هذا الحل لم يتحقق إلا فى عصر آخر . . عصر أخذت الشعوب فيه تعى مصيرها وأخذ الاستعمار طريقه إلى الزوال . ولذلك فالحل عند تنفيذه يحمل البصمات الواضحة لمفهوم غربى » .

ـ ولكن ألا ترى أن الأمر الخطير هو أن الصهيونية تهدف باستمرار ـ وبحكم مفهوم الأحداث المتوالية ـ إلى توسيع حدود إسرائيل على حساب العرب لإفساح المجال لمهاجرين جدد وعلى الدوام ؟

ـ « نعم . وأعتقد أن هذا الاتجاه خطير بالفعل ولا ينبغى التسليم به . وأنا أعرف يهوداً هنا فى فرنسا مناصرين بقوة لإسرائيل ولكنهم يتناقضون مع أنفسهم لأنهم لا يريدون الحياة فى إسرائيل ويفضلون الحياة هنا . أفكر مثلا فى مزراحى . . إنه يدافع عن إسرائيل ويتبنى وجهة نظرها بقوة لدرجة أنه خلال الأحداث الأخيرة قد وقع صريع أزمة صحية حادة .

ومع ذلك كله فمزراحى ما زال هنا . وهذا تناقض مألوف جداً عند يهود أوربا . إنهم يريدون إسرائيل ولكنهم لا يريدون الذهاب للإقامة بها » .

وعندما تقدم الحوار إلى هذا الحد وضعت أمام عين سارتر

ظاهرة موضوعية أخرى محددة، طالباً منه تفسيرها . وهى أنه فى كل مرة تنشب حرب بين إسرائيل والبلدان العربية تكون إسرائيل وقادتها الصهيونيون هم الذين يبادرون بالعدوان العسكرى بمساعدة مادية وعسكرية وسياسية ، مباشرة وغير مباشرة من القوى الاستعمارية .

ومضت لحظات صمت قبل أن يعطى سارتر التفسير التالى :

ـ « لتحديد موقف دقيق بشأن هذه المشكلة ، يجب أن نلاحظ أولا أن إسرائيل لا تستطيع أن تقضى على حقيقة وجود مائة مليون عربى . ولذلك فمن المتصور أنها ترمى إلى أعمال توسعية أو تسهم فى إحداث انقلاب ضد حكومة عربية ، ولكن من غير المتصور أن إسرائيل عندما ترفع السلاح ضد مصر تهدف إلى القضاء على مصر كأمة أو دولة . فهذا عديم المعنى . ولكن من الناحية الأخرى أن التهديد الذى يواجه إسرائيل فى حالة وقوع الحرب ، ومهما احتاط العرب لعدم المساس بحياة الأفراد ، هو القضاء على إسرائيل كدولة . ولذلك فالموقف من الحرب ليس واحداً من الجانبين . فمن ناحية ، يناضل العرب للدفاع عن منجزاتهم الاجتماعية ضد الاستعمار وضد إسرائيل التى يعتبرونها رأس رمح للاستعمار . ومن الناحية

الأخرى أى بالنسبة لإسرائيل فالقضية ليست قضية المنجزات الاجتماعية ضد الاستعمار وإنما القضية هى قضية وجودها غير المعترف به من جانب الدول العربية . . ومن هنا فهى تتسلح بصورة استثنائية وتقيم سياسة تنهض على القوة العسكرية ، وقد زادت هذه السياسة تفاقماً نتيجة اعتمادها على عدد محدود من السكان . ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار إسرائيل فى حالة تأهب عسكرى دائم وسط العرب . ولما كانت الدوائر الحاكمة فى إسرائيل مكونة من "الاشكيناز" ، أى اليهود الوافدين من أوربا ، كانت النتيجة أنها تمثل رأس رمح غربى . وفى هذه النقطة يهمنى أن أبرز موافقتى ، بشكل عام وغير تفصيلى ، مع وجهة النظر العربية القائلة بأنه فى عام ١٩٥٦ وفى عام ١٩٦٧ قد حدث تواطؤ بين الاستعمار وإسرائيل . وهذا التواطؤ هو فى الحقيقة مؤامرة كاملة . وقد استخدم الاستعماريون الأمريكيون إسرائيل استناداً إلى تواطئها معهم بوعى ، لضرب الشعوب العربية . ورأيى الشخصى هو أن الأمور تفضى إلى أن إسرائيل فى كل مرة تطلق عدوانيتها ، لأسباب تتعلق بكيانها ووجودها . ولكنها تخدم موضوعياً المخطط الاستعمارى . . »

ـ المخطط الاستعمارى الأمريكى بالدرجة الأولى . .

— « نعم . . الاستعمار الأمريكي خاصة . وفى هذه المرة أغلب الظن أنه ليس هناك اتفاق محدود ومكتوب بين أمريكا وإسرائيل من خلال مبعوثين أمريكيين مثلا . . ومع ذلك فأنا أسلم موضوعيا أن الحرب التى أشعلتها إسرائيل أخيراً لا يمكن إلا أن تخدم المصالح الأمريكية » .

مضت أكثر من ساعة وأنا أجلس إلى سارتر ونبرات الحوار ترفع حيناً وتخفت حيناً آخر ، ومقاطعات كل منا للآخر تروح وتجيء بلا انقطاع ، وموجة الحرارة التى طافت بباريس يومها ، أسهمت فى إشعال العديد من الكلمات .

قلت لسارتر ، متابعاً الحوار معه :

— هل لى أن أوجه إليك سؤالا معيناً ؟ كيف تفسر أنه فى كل مرة يحقق فيها النضال العربى مرحلة معينة من التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى يتبلور فى إنجازات تقدمية ، تتحرك إسرائيل على الفور للعدوان سواء فى تحالف صريح أو خفى مع القوى الاستعمارية ؟

أجاب :

— « الحق أن إسرائيل عام ١٩٥٦ قد استفادت من المؤامرة البريطانية الفرنسية المتعلقة بالسويس . أى من واقع أن الدول

الاستعمارية كانت قد قررت التدخل فى السويس . ولا أظن أن إسرائيل فى ذاتها قادرة ، أو تسعى وحدها لتحطيم العرب . ويمكن أن أقول بشكل عام إننى على سبيل القطع لا أعتبر إسرائيل بلداً تقدمياً . إن تطور إسرائيل لا يجرى فى اتجاه تقدمى . إن يهود "الكيوبتز" القدامى الذين وفدوا إلى فلسطين فى وقت لم تكن فيه إسرائيل دولة ، حاولوا صنع اشتراكية . ولكنها لم تتمكن بالطبع من أن تنهض بنفسها . والآن أعتقد أن تطور القطاع الخاص الحالى فى إسرائيل قد قضى تماماً على كل المعطيات التقدمية التى وجدت فى البداية حين لم تكن هناك دولة إسرائيل ، وإنما فلسطين كمأوى لليهود . . أولئك الذين ، كان يطلق عليهم فى الغرب اسم اليهود القذرين . . إذن فلست أظن أن ثمة تقدمية إسرائيلية هناك . وهذا لا يعنى أنه ليس هناك صراع طبقى فى إسرائيل لأن اليهود الشرقيين أى السفارديم ، يمثلون العنصر البروليتارى المعرض للاستغلال وهم لا يندمجون فى المجتمع الإسرائيلى المسيطر عليه اليهود الغربيون أى الأشكناز ، إلا ببطء وصعوبة » .

قلت لسارتر :

ــ لعلك لاحظت خلال الحملات التى شنت على نطاق

واسع فى فرنسا ضد القضية العربية ، أن العناصر الموالية لإسرائيل ومن بينها بعض الذين عارضوا حرب الجزائر ركزوا على اتهام مصر بأنها بلد فاشى ، وقارنوا الرئيس جمال عبد الناصر بهتلر . لقد زرتم بلادنا وقابلتم جمال عبد الناصر فهل ترون أن هناك أساساً ما لذلك الاتهام وهذه المقارنة ؟

وارتفع صوت سارتر بحدة وهو يقول :

— « إننى أعتقد أن هذا الاتهام فى غاية السخف ، وأنه من ذلك النوع الذى يتولد عن اندفاع أهوج والذى يتعين إهماله وإدانته تماماً . لقد وصفت شخصياً الرئيس جمال عبد الناصر ، ليس فقط فى المؤتمر الصحفى الذى عقدته فى القاهرة حيث يمكن الظن أن حديثى كان من قبيل المجاملة ، وإنما كذلك فى مؤتمرى الصحفى بإسرائيل وأمام المسئولين الإسرائيليين أنفسهم ، وصفته بأنه سياسى واع وقدير وحكيم ، يعتبر واجبه الأساسى كرئيس للدولة هو خلق ظروف اجتماعية أفضل عن طريق بناء الاشتراكية فى مصر . ولقد لمست بنفسى خلال حديثى معه مدى اهتمامه العميق بالمنجزات المصرية ومقدار وعيه الكبير بما تواجهه البلاد من مشاكل التنمية حتى فى الداخل ، مثل الزيادة الكبيرة فى عدد السكان . وكان



حديثنا يدور حول هذه القضايا . ولقد تكلم الرئيس جمال عبد الناصر عن مشكلة إسرائيل بطريقة غاية فى الشمول والعمق والاتزان . وليس بالتالى ثمة وجه للمقارنة بين رجل الدولة هذا الواعى تماماً بالواقع والأهداف والمصاعب وبين هتلر ، ولا حتى بينه وبين أى دكتاتور من أولئك الذين يحكمون هنا وهناك فى العالم حالياً . ليس ثمة وجه للمقارنة إطلاقاً . ولا شك أن محاولة بناء الاشتراكية قد بدأت حتى الآن على نحو ما بقيادة من أعلى . وربما كان مرجع ذلك عدم النمو الكافى للوعى الطبقى فى مصر . والآن بعد هذا الحدث الكبير الذى شهدته البلاد عندما أعلن عبد الناصر يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ تنحيته ، فتمسكت به الجماهير الشعبية بقوة ، يثبت أن عبد الناصر يجد خلفه القوى الشعبية الهائلة التى تسنده . وهذا دليل على الوحدة الثورية التى تتم تحت قيادته . وإذا كانت الوحدة الثورية تؤكد نفسها فى مثل هذه الظروف التى وصفها هو بالنكسة . فإنه يجب أن نذكر فى نهاية الأمر أن الكوارث والنكسات هى دائماً تصنع الثورات . . تصنع الثورات القوية . وإننى أعتقد أن مصر والشعوب العربية تنطلق اليوم فى الاتجاه الصحيح » .

— أود لو أمكنكم أن تفسروا لى حقيقة الدوافع التى تحرك

هذا الاتهام بالذات فى الدعاية المعادية للعرب فى فرنسا ، على وجه خاص ؟

— « إن ناصر مكروه فى قطاع كبير من الرأى العام الفرنسى ، وأعنى به قطاع اليمين بالذات ، وجزءاً من القطاع اليسارى . ، وهو مكروه بقدر ما أثبت أنه تقدمى . فالفرنسيون اليمينيون لا يغتفرون له أنه ساعد جبهة التحرير الجزائرية فى نضالها من أجل استقلال الجزائر . ومن ناحية أخرى توجد ثمة أنواع من العناصر اليسارية مثل "جى موليه" لا تغتفر له إطلاقاً هزيمتها فى حرب السويس . والواقع أنه يجب أن نفهم هذا التماثل فى الموقف . فلم يكن لفرنسا نفس المصلحة التى كانت لبريطانيا فى السعى لقلب نظام جمال عبد الناصر ، على أثر تأميم قناة السويس . ولكنها كانت تريد قلب النظام الذى كان يساند الجزائريين . وبعبارة أخرى كان الدافع الحقيقى لمغامرة السويس عند الفرنسيين ، هو الرغبة فى القضاء على نظام تقدمى كان يساعد الجزائر . ومن هذا الحقد تولدت الدعاية التى تريد أن تصور من عبد الناصر دكتاتوراً هتلرياً . . صورة زائفة وحقودة » .

وانعطف الحوار مرة أخرى إلى الحرب والعدوان فتساءلت :

— لقد أدنتم فى محكمة رسل التى عقدتموها أخيراً فى السويد استخدام أسلحة الإبادة الجماعية مثل النابالم . ولقد استخدمت إسرائيل فى عدوانها المفاجئ ضد البلاد العربية النابالم ، ضد العسكريين والمدنيين معاً . ويفاخر ديان بهذا ويعتبره أمراً طبيعيًّا فى الحرب . فما هو رأيكم فى هذا الموقف ؟ وفى تصريح ديان بأن إسرائيل لا يعنيها فى قليل أو كثير مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين يتزايد عددهم اليوم باستمرار بسبب طرد مئات الألوف الجدد من جانب إسرائيل ؟

واعتدل سارتر فى مقعده وكأنه قاض يتلو حكماً ثم قال :

— « إننى أعتبر بوضوح أن استخدام النابالم فى أى مكان سواء فى فيتنام أو ضد المصريين والسوريين والأردنيين عمل إجرامى فى جميع الأحوال » .

قلت :

— هل أفهم من ذلك أنك تعتبر « ديان » مجرم حرب ؟

هتف بلهجة قاطعة :

— « نعم . . الجنرال ديان مجرم حرب بسبب استعمال النابالم ، وبصفة خاصة بسبب الرغبة فى التوسع » .

وتريث سارتر برهة قبل أن يستطرد :

— « من الأمور الغريبة أننى حين ألقيت فى تل أبيب حديثاً عن محكمة رسل كان ديان بين الحاضرين فى مقدمة الصفوف . إننى لم أره ولم أتحدث إليه ، ولكننى علمت بأنه كان هناك . ولست أدرى لماذا حضر ، ولا ماذا كان يبغى ؟ .. على العموم فيما يتعلق بتصريحاته التى أشرت إليها ، ورفضه الكامل لعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم ، فإننى أعتقد أن هذا الموقف ضار للغاية لا من وجهة نظر الفلسطينيين فحسب بل بالنسبة للإسرائيليين أنفسهم . إننى أعتقد أن المأساة التى تقع عندهم هى عكس ما يحدث فى البلاد العربية . فغرور العسكريين الإسرائيليين ونجاحهم فيما فعلوه خلال الحرب قد ترتب عليه أن القوى الرجعية والمتعصبة دينيًّا هى التى تستولى حاليًّا على السلطة تماماً . »

إن الأمور الواضحة لدى الآن ، أن أول ما كان ينبغى على الحكومة الإسرائيلية أن تفعله أن تناقش وتحدد فوراً موعد انسحاب قواتها إلى قواعدها الأصلية أى إلى حدود سنة ١٩٤٩ . ولكن من الواضح أيضاً أنهم لا يفعلون هذا . فى حين أننى أتصور أنه كان يجب أن يفعلوا هذا خلال ثلاثة أيام على الأكثر .

كذلك يتعين علينا أن ندين بشدة الاتجاهات التوسعية التى ظهرت فى إسرائيل ، حيث إنه من المسلم به اليوم أن الحروب المشروعة هى حروب التحرير وحدها . وليست بحال حروب التوسع والاحتلال . ولكن ضم أى مناطق بالقوة مثل ضم مدينة القدس العربية فهو عمل جنونى تماماً . ومن هنا أقول إننى أعتبر استخدام النابالم فى الحرب ، كما أعتبر الاتجاه التوسعى إذا ما تحددت معالمه ، أعتبرهما أمرين إجراميين » .

قلت لسارتر :

ـ لقد استخدمت الآن فى حديثك عبارة « إن الحرب المشروعة هى حروب التحرير وحدها » . .

وقاطعنى :

ـ « تماماً . . أليس كذلك ؟ »

واستأنفت :

ـ تماماً . . وهنا أريد أن أثير معك نقطة جوهرية . . ألا تعتبر أن نضال الشعب الفلسطينى المطرود من أرضه من أجل العودة إلى وطنه ، نضالا تحررياً مشروعاً . . أم أنك تضعه، كما تضعه الدوائر الصهيونية فى إطار الأعمال الإرهابية ؟

أجاب :

ــ « إن ما أعتبره أنا شخصياً من قبيل الأعمال الإرهابية لا ينطبق على نضال الشعب الفلسطينى من أجل العودة . إننا هنا بصدد نضال من أجل الاستقلال . وهذا النضال هو الذى سيحمل الجميع دون استثناء بما فى ذلك الدول الكبرى على الإقرار بأن القضية الفلسطينية قضية أساسية . وأعتقد فيما يخصنى أن مشكلة الدولة الإسرائيلية مشكلة ثانوية . أما المشكلة الأساسية فهى عودة الفلسطينيين إلى وطنهم . وارتباط الإسرائيليين والفلسطينيين بشرق أوسط تقدمى» .

قلت :

ــ هل تقصد هنا الطوائف اليهودية والعربية ؟

قال :

ــ « تماماً . وإن الشرق الأوسط الذى يتكون بهذا الشكل يمكنه أن يجد حلا لمشكلاته بعيداً عن الحرب » .

وهنا طرحت على سارتر ظاهرة الاستقطاب فى القوى الدولية بسبب العدوان فقلت :

ــ لقد أصبح واضحاً الآن أن إسرائيل تتمتع أساساً بمساندة الاستعمار العالمى ، وهى تقف اليوم فى جبهة مع أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية ، وذلك فى مواجهة جبهة مكونة من

الشعوب العربية والقوى الاشتراكية والعالم الثالث . . كيف تحلل هذه الظاهرة ؟

وجاء تحليل سارتر على النحو التالى :

ـ « إننى أعتقد أن إسرائيل ، بكل أسف ، من حيث إنها قد نشأت بفعل مهاجرين قادمين من الغرب . وإنها حين وجدت كدولة تمتعت بعون القوى الغربية . . هذا فضلا عن رفض العرب لأى تعامل معها . بهذا كله أصبحت إسرائيل اليوم موضوعياً إلى جانب الاستعمار . ومساندة إسرائيل يقوم بها اليوم الإنجلو أمريكيون وبصفة خاصة الأمريكيون . هذا واقع . وكما قلت لك هو واقع تاريخى تطور من تلقاء ذاته . وهنا أختلف معك فى أن هذا كان منذ البداية ثمرة تواطؤ مباشر مقصود من جانب الإسرائيليين . بعبارة أخرى نحن الآن بصدد واقع موضوعى تكون تاريخياً ، وفى تقديرى أنه ربما كان من الممكن أن تسير الأمور فى غير هذا الاتجاه عام ١٩٤٨ ، ولكن ما حدث كان غير ذلك . ومن ناحية أخرى فإننى أعتبر من المنطقى والمشروع تماماً أن يعلن العالم الثالث والقوى الاشتراكية تضامنهما مع العرب ، حيث إن العرب مناضلون من أجل الاستقلال والسيادة القومية ضد المصالح الاستعمارية ، وبصفة خاصة

المصالح البترولية . وأنا واثق كذلك أن الاستعماريين يحرصون على استخدام إسرائيل ككلب حراسة ، ولكنى ألح شخصياً على اعتبار أن هذا الدور ليس فى مصلحة الإسرائيليين . . إن مصلحة الإسرائيليين عكس ذلك . إنها فى القضاء على الالتحام الموضوعى الذى أشرت إليه . وإن دولة تتكون من عنصرين ساميين ، عرب فلسطين واليهود لن يكون لها عندئذ طابع استعمارى أو غربى أو عنصرى » .

وتساءلت :

ــ هل تعتقد أن حرب ٥ يونيو فى الشرق الأوسط قد وضعت نهاية المفهوم التقليدى للتعايش السلمى ؟

أجاب سارتر :

ــ « الحقيقة أننى أعتقد أن سياسة التعايش السلمى قد تهددت بالفعل منذ حرب فيتنام . وأعتبر أننا الآن على مشارف حرب عالمية ثالثة . ولست أرى ــ فى تقديرى ــ عنصراً يسمح بتطور العالم الثالث فى ظل السلام إلا القنبلة الصينية . ذلك أننى لا أعتبرها من عوامل الحرب ، بالعكس إنها عامل من عوامل توازن الرعب . وحين ينجح الصينيون فى صناعة الصواريخ ، حيث يصبحون دولة ذرية مهيبة ، سيحس العالم الثالث بأن

عنده وسائل الدفاع ويمكن بذلك أن تسير الأمور فى مجرى يختلف عن مجراها الحالى . إننى أثق تماماً بكلمة الصين بأنها لن تبدأ باستخدام القنابل الذرية . ولكن امتلاك الصين للقنبلة الذرية سيطلق حرية الحركة لأولئك السبعمائة مليون الذين يمثلون إلى نحو ما مصالح العالم الثالث ، والذين يتهددهم دائماً كون سمائهم مفتوحة للانتقام الذرى . وعندئذ سينشأ توازن جديد قائم على الرعب ، يتوافر فى ظله ضمان لجهود العالم الثالث من أجل الاستقلال والارتقاء بمستواه الاجتماعى وبمنجزات التنمية. ولا ينبغى أن يفسر كلامى هذا على أنه موقف موال للصين أو معاد للروس . فليس ذلك قصدى » .

ـ هل لأن الاستعمار الأمريكى قد حقق موضوعياً بالفعل مكاسب كثيرة أخيراً ؟

ـ « لقد كسب الاستعمار الأمريكى كثيراً فى الفترة الأخيرة ، وبالدقة لأن الصين لم تملك بعد وسائل وقفه » .

ـ هل يمكن القول بأن الاستعمار الأمريكى نتيجة حركته التخريبية العدوانية الشاملة هذه ، قد أصبح مسئولا عن خطر اندلاع الحرب العالمية الثالثة ؟

ـ « طبعاً » . .

وعاد الحوار من جديد إلى جوهر الصراع العربى الإسرائيلى عندما قال سارتر :

— « إن القضية كما ترى هنا فى الغرب معقدة . . وهذا ما ألح على أصدقائى العرب أن يدرسوه ويبحثوه . إن القضية هنا هى قضية يهود عاشوا سنوات الاحتلال فى فرنسا ، وما شهدته من الرعب والمجازر . والذين لمسوا تواطؤ الفرنسيين والألمان فى ذلك الوقت ، أنبت عندهم فكرة مغادرة هذا العالم الغربى بدل فكرة الاندماج فيه . لقد استبدت بهم فكرة البحث عن مكان يكون لهم ، ويقبلون فيه . . ولست أعنى بذلك طبعاً أن النتيجة المنطقية لمثل هذا التفكير أن تكون إقامة دولة إسرائيل على حساب العرب . وإنما أردت فقط أن أكشف لكم عن شعور أولئك الناس . حقاً إنه من الصحيح أيضاً ما تقولونه أنتم من أن الغربيين تخلصوا من عقدة الذنب إزاء اليهود بإرسالهم عند العرب ، الذين لم يكونوا طرفاً فى الموضوع ولا يتحملون بحال مسئولية مذابح اليهود . ولكن يجب النظر للمسألة من الجانب الآخر أيضاً . . »

— ياسيدى . . لقد قلت الآن إن هؤلاء اليهود الغربيين هاجروا من أوطانهم لأنهم كانوا يريدون مكاناً يقبلون فيه هرباً من

الاضطهاد . ولكنهم هبطوا فى الواقع على فلسطين بالقوة ، وتمتعوا فى هذا المكان بامتيازات على أساس أنهم يهود . وذلك على حساب غيرهم من الناس أهل البلاد الأصليين الذين إما طردوا وإما ظلوا تحت الإرهاب لا يتمتعون بأى امتياز فى بلدهم لأنهم أولا وأخيراً غير يهود !

ـ « إذا تحدثت عن هذا فإننى قلت فى إسرائيل ، وأقول من جديد ، إن وضع العرب فى إسرائيل هو وضع مواطنين من الدرجة الثانية . وليس فى هذا أى شك . هناك مشكلتان مرتبطتان معاً كل الارتباط ويجب حلها قبل كل شىء وهما المشكلة الفلسطينية بمعنى هؤلاء الذين طردوا ، ومشكلة العرب داخل إسرائيل . وهى مشكلة صعبة لأن السلطات الإسرائيلية منحتهم شكلياً حقوق الديموقراطية البرجوازية ، فهم يتمتعون بحق الانتخاب ؛ وهذا لا يسبب أية مشكلة للإسرائيليين الذين يبلغ عددهم ٢,٥ مليون يهودى ، فى حين أن عدد العرب ٣٠٠ ألف فقط . ومعنى هذا إمكانية وجود بعض النواب العرب ، ولكنهم بالطبع أقلية ضئيلة جداً لا تستطيع أن تفعل شيئاً . وليس هناك أى حزب عربى . . غير مسموح . ويجب على العرب أن ينضموا إلى الأحزاب الإسرائيلية فقط ، وكذلك اتحادات الطلبة

وغيرها . . ومن هنا العنصرية . ومن الواضح كذلك أن من الناحية الاقتصادية لا يمكن أن يحصل العرب على وظائف ذات درجات عالية ، والأغلبية منهم يعملون فى مقاولات البناء » .

ــ ماذا قالوا لك هناك عندما أعلنت الحق القومى للشعب الفلسطينى فى العودة ؟

ــ « لقد تناقشت فى ذلك مع بن جوريون مثلا . وهو ضد . . ضد . هم ضد . من المحتمل أن يوافق على هذا ما أسميه باليسار الإسرائيلى ، ولكنه خائف . . يخافون هناك أن تنفجر البلد لو عاد اللاجئون . وعلى العموم اليسار ضعيف » .

ــ هذا هو بالدقة منبع العدوان . طرد أهل البلاد وإقامة دولة عنصرية بالقوة المسلحة مستندة إلى القوى الاستعمارية واحتكاراتها .

ولم يعلق سارتر بشىء ومضت فترة صمت . وكان واضحاً أن كلا منا قد فرغ رأسه من القضايا أو الأسئلة التى يريد طرحها . وقطعت الصمت قائلا بمزاح : عندما كنت أعمل محامياً كان كل نقاش فى موضوع قضائى ينتهى بسؤال : هل لديك أقوال أخرى ؟

وابتسم سارتر وقال :

ـ « نعم أريد أن أنهى هذا الحديث بما. أعتقد أنه فهم خطأ . بمعنى أنى أريد أن أؤكد لأصدقائى العرب أن ما وقع بسبب البيان الذى وقعت عليه قبل الحرب لا يعدو أن يكون مجرد سوء تفاهم .

لقد قلت من قبل فى مصر وفى إسرائيل ، إنى أنطلق من نقطتين : ضد إبادة الإسرائيليين . ومع الاعتراف بالحقوق القومية الكاملة للفلسطينيين جميعاً فى العودة إلى الوطن . قلت هذا فى المرتين ... ولم أفعل شيئاً آخر فى الوقت الراهن . وأكثر من ذلك فإن لى رأياً محدداً ؛ وهو أنى أقف إلى جانب الإنجازات التقدمية لمصر والعالم العربى كله . إننى الآن كما كنت دائماً . لقد أسىء فهم موقفى وأسىء فهم البيان وتأويله . لقد أردت فقط الإشارة إلى عدم موافقتى على اتخاذ أسلوب الحرب . وكأن يبدو لى وقتذاك أن قرار إغلاق خليج العقبة من شأنه أن يزيد من خطر الصدام المسلح . وقلت لا تفعلوا ذلك . . »

ـ ولكن من المؤكد أنك تعرف الآن حقوق المصريين بالنسبة لموضوع خليج العقبة .

ـ « أعرف كل حقوق المصريين . ولكن كما قلت كنت أفكر وقتذاك فى المسألة من ناحية التوقيت ، وليس كمسألة حق» .

ــ ولكن جاء تعيين مناحم بيجين وديان فى الوزارة الإسرائيلية كتدبير مبيت للحرب والعدوان .

ــ « فعلا . . منذ تعيين ديان كانوا قد قرروا العدوان . ليس هناك شك فى ذلك ، قرار تعيين ديان كان قراراً بإعلان الحرب » .

ــ هل يمكن فى رأيك ، ربط حرب ٥ يونيو ، بالانقلاب العسكرى الذى وقع فى أبريل باليونان ؟

ــ « على كل حال . . فإن هذا كله يشكل مجموعة أحداث متشابكة ومتقابلة » .

وعلى باب البيت صافحنى سارتر مودعاً وهو يقول :

ــ « أرجو أن تنقل للشعب المصرى وجميع الشعوب العربية تضامنى معها فى هذه المرحلة . إننى أفهم جيداً جراحها وأشاركها مشاعرها وأتمنى لها الاستمرار فى نضالها . كما أتمنى للرئيس جمال عبد الناصر أن يلقى دائماً ، ما تأكد أخيراً ، من تأييد الجماهير الشعبية ليواصل نضاله وإنجازاته » .

٣

وثائق

(ا) خطابات مفتوحة بين « رسل » وبين « الطليعة »

(ب) آراء « لسارتر » حول القضية الفلسطينية .

خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة وغزة فى فبراير — مارس عام ١٩٦٧ .

(ا) خطابات مفتوحة بين « رسل » وبين « الطليعة »

خطاب مفتوح من برتراند رسل إلى المثقفين العرب

[وجه رسل هذا الخطاب إلى الطليعة فى أواخر مارس عام ١٩٦٥ مفتتحاً بذلك الحوار بينه وبين المثقفين العرب . وقد نشرت الطليعة الخطاب وتعليقها عليه فى عددها الصادر فى أول أبريل عام ١٩٦٥]

تواجه البشرية أزمة خطيرة لا يقتصر أثرها على مطالب الإنسان الأولية ، بل تهدد بقاءه على هذا الكوكب . فإن الجزء المتقدم من عالمنا عندما وجه أغلب موارده إلى التسلح ، فرض حياة مشحونة بالخطر على الجزء الآخر من العالم ، وأكد استمرار شقاء شعوبه ، كما بعث شبح الإبادة يخيم على الجميع . لهذا أصبح على المثقفين العرب مسئوليات خطيرة تجاه شعوبهم ؛ فإن الظروف التى أوضحتها باختصار قد أثرت على العالم العربى تأثيراً حيوياً ، وكان تحرر العرب من السيطرة الغربية من أعظم

الحركات الثورية فى عصرنا الحاضر . ونظراً لوجود المصالح الحيوية للدول الاستعمارية التى تعتمد صناعاتها على البترول فى الشرق الأوسط ، فقد انغمست هذه الدول فى التآمر على وقف التيار الكاسح للاستقلال والتقدم الاقتصادى الذى ساد البلاد العربية ، وذلك حتى تحمى هذه المصالح الاستعمارية .

وقد أدى هذا الموقف ليس فقط إلى سمة بروز الانضباط بل أيضاً الحكم القيادى الفردى الطابع ، فى كثير من الأحيان بين حركات التحرر الوطنى التى تعبر عن آمال الشعوب العربية .

ونحن فى الغرب ندرك أن الضغط الرهيب الذى تمارسه حكوماتنا ضد البلاد العربية ، والذى يتخذ شكلا اقتصادياً مرة ، وشكلا عسكرياً مرة أخرى أوجد مشاكل عديدة فى مواجهة الحكومات المستقلة وحركات الاستقلال الشعبية فى هذه المنطقة . فكانت النتيجة أيضاً عدم الترحيب بالاختلافات فى الرأى ، الأمر الذى يمكننا إدراكه وفهمه ، بل قد يكون حتمياً فى بعض الحالات . كل هذه الظروف الخاصة تضع مسئوليات مضاعفة على عاتق المثقفين العرب قد تفوق مسئوليات غيرهم من الجماعات المثقفة . لأنه فى بعض الحالات الهامة كان

التشدد مع الآراء المختلفة المعارضة سبباً فى تعريض استقلال وتطور الشعوب العربية ، للتعويق والتشويه .

إن شعوبكم تتطلع إليكم ، وتلقى مسئولية تأكيد الديمقراطية ، خلال عملية التطور عليكم ؛ فإن أمجاد الشعوب العربية لم يصنعها أدبها ولا شعرها ولا فنها ولا علومها ولا حتى جمال لغتها فحسب ، بل إن عظمة هذه الشعوب وتقدمها يصنعه أيضاً الذين يملكون الاستقلال الثقافى ويمارسون النقد الذكى ، لأن هذا هو ثروة أى شعب ، وسر قوته الخالدة التى تمكنه من تحقيق الاستقلال الفعلى ، والاكتفاء الذاتى ، ويتيح له القدرة على الخلق وتوفير الأمن . والقوة العسكرية لم تحقق لأى أمة من الأمم الاستقرار ولا راحة البال ما دامت ثقافتها عاجزة عن توفير الحياة المثمرة ، وعن إثارة حوافز التحدى لدى هذه الأمة ، بل إن التقدم الاقتصادى فى حد ذاته إذا اقتصر على تحقيق الربح الشخصى يصبح تقدماً فجًّا وفاسداً ، كما نرى فى الغرب ، ما لم توجه ثمار هذا العمل نحو أهداف أخلاقية . وترتبط هذه المشاكل كلها ارتباطاً مباشراً بآمالنا المعلقة على السلام . لأنه فى هذا العالم المعقد ، عندما يواجه المسئولون عن شئون أمة ما ضغوطاً هائلة ، فمن الضرورى أن يتخذ المثقفون

العرب موقفاً صريحاً إلى جانبي حرية التعبير ، والديموقراطية الحقيقية لكل المستويات فى المجتمع ، وأن يعملوا على خلق مناخ من الحماس للنقد البناء .

ونحن إذ نواجه سباقاً للتسلح الذرى فى العالم بما فيه الشرق الأوسط ، نجد أن التناقضات المختلفة التى تهدد السلام فى العالم تمثل أيضاً خطراً جسيما على حياة الشعوب العربية . فإذا اتخذ المثقفون العرب سبيل الصراحة والاستقلال كان فى استطاعتهم مشاركة كل العاملين بإخلاص من أجل السلام — بدون استثناء — على استكشاف احتمالات تحقيق السلام . وإذا كانت العواطف القوية ضرورة للعمل الإنسانى ، فلا بد أن يوجه العقل هذه العواطف بعناية شديدة نحو خدمة الأهداف البناءة دون غيرها . وتقع على المثقف مسئولية البحث بشجاعة عن كل الطرق التى توصل إلى الحل السلمى للمشاكل الصعبة .

وفى مقدمة القضايا التى تواجه الشعوب العربية اليوم ، نزع السلاح الذرى ، إلغاء القواعد والأحلاف العسكرية ، تحقيق الاستقلال الاقتصادى الحقيقى بالإضافة إلى تخطى كافة العقبات التى تعوق طريق تجنب الحرب . وإنى أتطلع إلى مبادرة المثقفين العرب ، وإلى تعاونهم الوثيق فى العمل على التقدم نحو أغراضنا

المشتركة ، فى تجنب الحرب ، وتنمية الموارد من أجل الأهداف البناءة ، واتباع كافة السبل الممكنة لحل الخلافات القائمة .

* * *

تعليق « الطليعة »

حول خطاب « رسل » المفتوح

تنشر « الطليعة » — بترحاب وتقدير — الخطاب المفتوح الذى بعث به إليها ، رجل السلام العظيم « برتراند رسل » ، ويوجهه على صفحاتها إلى المثقفين العرب وتود الطليعة — بادئ ذى بدء — أن تؤكد « لرسل» ما يكنه المثقفون العرب الذين يخوضون معركة شعوبهم من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة والسلام — من تأييد حار ومشاركة إيجابية ، لجهوده الشجاعة والبناءة — الفردية والتنظيمية— فى سبيل انتصار قوى السلام على قوى الحرب والعدوان فى عالمنا .

وفى هذا الإطار تسمح « الطليعة » لنفسها بأن تبدى بعض الملاحظات على ما جاء بخطاب رسل المفتوح :

أولا : أن التعميم الذى أبداه « رسل » فى خطابه حول « تحرر العرب من السيطرة الغربية » لا يتفق والواقع الموضوعى

تماماً . فإذا كانت بعض أجزاء الوطن العربى الطليعية قد تحررت بثوراتها فعلاً عن التبعية الاستعمارية ، فما زالت بعض الأجزاء الأخرى مقيدة الحرية إما بطريق غير مباشر ، يكون فيه الاستقلال شكلياً ، مفرغاً من مضمونه السياسى والاقتصادى ، وإما بطريق احتلالى مباشر أو عدوانى مسلح ، كما هو الحال فى الجنوب العربى المحتل ، أو فى الاعتداء على جمهورية اليمن ، أو فى العدوان الصهيونى العنصرى المستمر على عرب فلسطين .

ومن هنا فمعركة الشعوب العربية — ككل — مع الاستعمار العالمى — القديم والجديد — ما تزال مستعرة ومستمرة . وتشترك فيها بنصيب حيوى شعوب الأجزاء المتحررة ، بحكم المصير المشترك وبحكم أن الحرية لا يمكن أن تستقر آمنة بطريق التجزئة .

هذا فضلا عن أن حركة التحرر العربى ترتبط ارتباطاً عضوياً وثيقاً بحركة التحرر الأفريقى . إن ٧٢٪ من أراضى الوطن العربى أفريقية ، وبالتالى فصيرها جزء لا يتجزأ من مصير هذه القارة . ولهذا تمارس الأجزاء المتحررة من الوطن العربى بوعى، مسئولياتها المباشرة وغير المباشرة ، المادية والمعنوية ،

بالنسبة لجميع حركات التحرر العربية والأفريقية المعاصرة . ولا يمكن القول إذن بأن البلاد العربية قد تحررت نهائيًا من الاستعمار والسيطرة الغربية .

ثانياً : إن طابع الانضباط والحكم القيادى الفردى الذى يتحدث عنه « رسل » ملاحظاً إياه من خلال فهمه لظروف حركات التحرر الوطنى ، يجب أن يقيم من خلال تحليل موضوعى لهدف ومضمون هذا الطابع الاجتماعى . بمعنى هل هو منضبط قياديًا لصالح دكتاتورية شخصية أو لصالح فئة اجتماعية رجعية مستغلة ، أم هو تعبير حتمى — بحكم الظروف — عن قيادة ثورية منتخبة ممثلة للقوى الاجتماعية العاملة الأكثر تقدماً فى مجتمعها ، والتى تمارس فى الواقع ثورة قومية تحررية واجتماعية تقدمية فى نفس الوقت . وبالتالى فالفرد القائد هنا يلعب بالضرورة والحتم دوراً تقدميًا فى تاريخ التطور العام ، مخالفاً ومناقضاً لدور الفرد الدكتاتورى البرجوازى المعادى لحركة التقدم محليًا وعالميًا على السواء. وبدون هذا التمييز نقع فى التجريد الذى يخلط الملح بالسكر لمجرد التشابه الشكلى بينهما ، فلا نستطيع أن نفرق جذريًا مثلا بين دور رجل كسالازار مثلا فى البرتغال ، وتشومبى فى الكونجو . . وبين رجال مثل عبد الناصر

وسيكوتورى وموديبوكيتا ؛ فى كل من مصر وغينيا ومالى .

إن هؤلاء الرجال الآخرين – وإن تصدرت شخصياتهم فى مقدمة شعوبهم ، بحكم الظروف التاريخية ومركزية القيادة الضرورية فى مراحل الانتقال الثورية المعقدة الصعبة ، إلا أنهم فى الحقيقة نتاج ديمقراطى لنضال القوى الشعبية فى بلادهم ضد الاستعمار والاستغلال . ومن هنا فهم يمثلون فى وقت واحد ديموقراطية قوى الشعب العاملة من ناحية ، ودكتاتورية هذا الشعب من ناحية أخرى ضد الطبقات الرجعية المستغلة والمرتبطة بالمصالح الاستعمارية . وفى هذا المجال تمارس الحرية والديموقراطية من جانب القوى الشعبية فى إطارها الاجتماعى الثورى ، وبأساليب النقد والنقد الذاتى الشامل لكل نواحى المجتمع .

ولعل فى المناقشات الرحبة والصراعات الفكرية الحية التى يشهدها اليوم مجتمع كالمجتمع المصرى أو المجتمع الجزائرى ، ويسهم فيها إيجابياً العمال والفلاحون والمثقفون والبورجوازية الوطنية حول بناء التنظيم السياسى والمجتمع الاشتراكى ووسائل ممارسة الديمقراطية من أوسع نطاق وأوجه التفاعل الإيجابى مع حركات التحرير الوطنى والسلام العالمى . . ما يؤكد « لرسل » ؛ المناخ الصحى الديمقراطى لهذه المجتمعات .

فالمسئولية الفردية التقدمية المتفاعلة مع خط التطور ، لا تنفى ولا تتعارض مع القيادة الجماعية والديمقراطية الحقيقية بل تدعمها . وليس من شك فى أن حركة السلم التى يقودها رسل قد اكتسبت — بهذا المفهوم — جزءا هاماً من قيمتها بانتسابها إلى جهود وشخصية المفكر العظيم .

ولذلك حرصت على أن تطلق على نفسها اسم « مؤسسة — برتراندرسل للسلام » . وليس لهذا من معنى إلا تفاعل المسئولية الفردية لرسل مع القيادة الجماعية والتنظيم الجماهيرى للمؤسسة. ومن هنا كان الطابع الفردى لهذه المؤسسة طابعاً تقدمياً .

ثالثاً : إننا نؤمن مع رسل بضرورة حل كل الخلافات القائمة بين الدول فى عالمنا المعاصر بالطرق السليمة . ولكننا فى نفس الوقت نؤمن بأنه من البديهى والطبيعى أن نخرج تماماً من نطاق هذه « الخلافات » ، الصراع الثورى بين الشعوب المستعمرة والمغتصبة أراضيها وبين القوى الاستعمارية والقواعد العدوانية تحت أية صورة أو شكل . وبدون هذا التمييز فإننا نتورط — كما لا يخفى — من أن إضفاء الشرعية على الاستعمار وقواعده ، منبع الحرب والعدوان .

وبعد . . فإننا نرحب بخطاب راسل المفتوح ، ونشاركه

بعمق الإحساس بمسئوليتنا الإنسانية – المادية والمعنوية – فى العمل المشترك من أجل تجنب الحرب . وتنمية الموارد من أجل الأهداف البناءة للسلام العالمى ، والإنسان حر ، آمن ، غير مستغل فوق كل أرض وتحت كل سماء دون ما تمييز أو تفريق لونى أو عنصرى أو دينى .

« لطفى الخولى » الطليعة

* * *

الخطاب المفتوح الثانى من «رسل» إلى الأصدقاء العرب

دعا المفكر والفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » داعية السلام العظيم المعاصر ، « لطفى الخولى » رئيس تحرير « الطليعة » لقضاء عطلة نهاية الأسبوع الثانى من شهر سبتمبر الماضى معه فى بيته الريفى الصغير الكائن بقرية بنرهنديرث بمقاطعة ويلز ببريطانيا والمطل على بحر الشمال .

وقد أتيح للطفى الخولى خلال هذا اللقاء أن يجرى مناقشات مثمرة مع المفكر الكبير حول كثير من قضايا السلام والساعة . وأن يستفيد من كل دقيقة قضاها فى رحاب هذا العقل المضىء والذى يختزن خبرة ٩٣ عاماً متصلة علماً وجهاداً .

وفى هذا اللقاء تحدث « رسل » عن قضية الديمقراطية فى العالم . وكيف أنها ما برحت على الرغم من كل التقدم المادى

والمعنوى الذى أحرزه الإنسان سؤالا يبحث عن جواب فى مختلف المجتمعات والنظم بدرجات متفاوتة . وأكد ثقته فى أن تجارب المجتمعات النامية الجديدة مثل التجربة المصرية قادرة بجرأتها وجديتها وفتوتها ، أن تجسد عمليًّا إجابات أكثر إنسانية على سؤال الديمقراطية .

وقال « رسل » إنه يتجه إلى هذا الرأى من خلال تجربتين له مع كل من مصر وأمريكا . فقد حدث أن بعث إلى « الطليعة » بخطاب مفتوح إلى المثقفين العرب تضمن نقداً لبعض أوجه الحياة العربية المعاصرة ، فنشرته « الطليعة » بترحاب كامل ، وأدارت معه حواراً علمياً ديمقراطيًّا[1] .

أما فى أمريكا فقد حدث أن طلب منه بعض الناشرين الأمريكيين مقالا عن « بروز سياسة العنف الأمريكية » وذلك خلال حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية التى دارت بين كل من جونسون وجولد ووتر . وبعث لهم بالمقال ولكنهم ما إن اطلعوا عليه حتى اعتذروا عن نشره رغم أنهم هم الذين طلبوه . واعتقد راسل فى بداية الأمر أن هؤلاء الناشرين يخالفون رأيه وأن هذا سر الامتناع عن النشر . ولكنه فوجئ فيما بعد بأن كل

(١) نشر خطاب رسل المفتوح وتعليق الطليعة بالعدد الرابع (أبريل ١٩٦٥).

الصحف الأمريكية امتنعت عن نشر المقال . وكان واضحاً أن هناك تعليمات وأوامر عامة بعدم النشر . وهكذا لم ير المقال حتى اليوم النور وأصبح مشهوراً باسم « مقال رسل الممنوع »(١)

خطاب رسل إلى الأصدقاء العرب

كتب هذا المقال قبل إجراء انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة التى جاءت بالرئيس « جونسون » إلى السلطة . إن الازدياد السريع للعنف الفوضوى داخل الولايات المتحدة يسير جنباً إلى جنب مع التوسع فى العدوان العنيف باعتباره سياسة قومية ينتهجها أولئك الذين يحكمون أمريكا الآن. ورغم أن هذا المقال قد كتب بناء على طلب صحف أمريكية ، إلا أنها رفضت نشره عندما اطلعت على محتواه .

لقد أثبتت الحوادث صحة جوانب معينة فى هذا المقال ، فقد اتخذ الرئيس « جونسون » جميع أوجه سياسات خصمه ، وأظهر أنه يتبع — فى الأساس — نفس أهدافها ويمثل نفس القوى التى مثلها السناتور « جولدووتر » منافسه السياسى اسما . وتؤكد هذه الحقيقة أن سياسات وأهداف المجموعة الحاكمة فى

(١) أى حتى نشره مع خطاب رسل الثانى فى الطليعة — العدد الحادى عشر (نوفبر ١٩٦٥) .

أمريكا لا ولن ترضى بتنازلات أو تقبل المهادنة ، وأنها يمكن أن تنتهى فحسب عندما تهزم هذه المجموعة وتقصى عن السلطة . إن سلام العالم وسعادة الشعوب يتوقفان على تحقيق ذلك . وإنى لأعلم أن هذه الأفكار ستجد استجابة فكريه وقلبية من الشعب العربى لأنه جرب القهر الشديد الصارم للإمبريالية الأمريكية واستغلالها وعنفها .

هناك نقطة واحدة أود توضيحها بطريقة لا يتطرق إليها الخطأ ، هى أن الشعب الأمريكى – فى مجموعه – لا يعد مسئولا تماماً عن جرائم أولئك الذين يحكمونه ، لأن الشعب الأمريكى هو أيضاً ضحية لحكامه . لقد أظهر كثير من الأمريكيين شجاعة عظمى فى معارضة سياسة الولايات المتحدة فى فيتنام . وعندما حاولت الولايات المتحدة أن تهين كرامة الشعب المصرى ، بالإيحاء بأن سياسة الجمهورية العربية المتحدة يجب أن تتغير إذا ما أريد استمرار المعونة الأمريكية ، انضم كثير من الأمريكيين إلى الشعب المصرى فى إدانته وازدرائه لمحاولة الابتزاز هذه .

وفى الوقت الحالى ، تقوم وكالة المخابرات المركزية بضغط كبير وبالتآمر على الرئيس ناصر والشعب المصرى وإنجازاته الثورية وأمانيه . وينبغى أن نتذكر ، ولا ننسى بسهولة أن

ميزانية وكالة المخابرات المركزية تبلغ خمسة عشر ضعف مجموع ميزانيات كل النشاط الديبلوماسى لحكومة الولايات المتحدة . ولا يوجد بلد واحد لم تشتر فيه وكالة المخابرات المركزية أقساماً من الجيش والبوليس ورجال السلك المدنى ، ولم تدبر فيه الخطط لاغتيال الشخصيات الوطنية المرموقة . هذا هو السجل الذى تفخر به وكالة المخابرات المركزية نفسها ، والوثائق التى تثبت عمل هذه العصابة من القتلة المنظمين معروفة جيداً . لقد تابعنا باهتمام، مؤامرات وكالة المخابرات المركزية ضد شعب مصر والتى كشف عنها أخيراً ، ولقد تحدث عبد الناصر باسم الأمة العربية فكشف النقاب عن هذه المؤامرات وهزيمتها ، وينبغى علينا أن نعمل بلا كلل لنرى إنجازات وآمال الشعب المصرى والأمة العربية وقد تحققت .

وإنى لمغتبط أن دعتنى « الطليعة » ــ المجلة الاشتراكية الرائدة فى العالم العربى وأفريقيا ــ التى تصدر بالجمهورية العربية المتحدة إلى المشاركة فى تحريرها بهذا المقال وذلك من خلال المناقشات القيمة التى دارت بين رئيس تحريرها السيد لطفى الخولى وبينى فى منزلى بويلز ، وعلى صفحات « الطليعة » نشر من قبل خطابى المفتوح إلى المثقفين العرب الذى بدأ من

خلاله حوار حول المسائل التى ينبغى عملها من أجل سلام العالم والديمقراطية والتقدم الاجتماعى . وإننى أرحب بالحرية الكاملة التى التزمتها الطليعة فى تبادل الرأى ، وهى ظاهرة مشجعة. وإنى لمبتهج أن أتيحت لى هذه الفرصة لأعبر عن تقديرى وإعجابى بالدور الحيوى الذى تقوم به « الطليعة » فهى ترتقى إلى مستوى اسمها فيما يتعلق بالمهمة التى وضعتها نصب عينيها ، مهمة المساهمة الإيجابية فى التوعية الشعبية لتحقيق الإنجازات الجوهرية لأمانى الشعب المصرى الوطنية عبر الاشتراكية . « فالطليعة » قد أخذت على عاتقها تلك الرسالة الهامة القائمة على بحث المشاكل الواقعية التى تواجه شعب مصر اليوم ، وتواجه كل المهتمين بتطور الأفكار الاشتراكية والأهداف الدولية التى برزت على صفحاتها .

لقد انتقدت فى خطابى السابق جوانب معينة فى الحياة السياسية المصرية وفى الثورة العربية . وقد نشرت هذه الانتقادات بحرية وبلا تردد . والمقال التالى ينتقد بعض الجوانب الهامة فى الحياة الأمريكية. وقد رفض نشره فى الولايات المتحدة من عديد من كبريات الصحف . إن الولايات المتحدة تدعى الإيمان بالديمقراطية وحرية التعبير ، لكنها تتخذ فى الحقيقة

خطوات لمنع كليهما . وإن الترحيب الذى قابلت به « الطليعة » تعليقاتى النقدية هو بالنسبة لى واحد من أكثر التطورات المشجعة فى الصورة العربية . « برتراند رسل »

* * *

بروز سياسة العنف الأمريكية

برتراند رسل

تتزايد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، سياسة العنف غير المشروع فى مناطق متعددة من العالم . لقد وضعت هزيمة النازيين حداً لتفوقهم فى هذا المجال ، إلا أن أعمالهم الشريرة لم تنته بعد ، فقد انتشرت روح العنف فى بلاد أخرى وخاصة فى أمريكا التى جسمت خطر الشيوعية ، وصورتها كشر يبلغ فى ضراوته حداً يبرر معه شرعية الأساليب المتخذة للتصدى لها .

وفى الوقت الذى تتهم فيه أمريكا ، الشيوعيين بالرغبة فى السيطرة على العالم ، تحاول أمريكا نفسها — تحت ستار هذا الشعار — أن تفعل بالدقة نفس الشىء الذى تتهم به أعداءها . والأساليب التى تنتهجها أمريكا فى هذا الصدد ، ليست معروفة تماماً للرجل الأمريكى العادى . ويعزى هذا — من جهة — إلى سياسة إخفاء الحقائق عنه عن عمد ، كما يعزى من جهة

أخرى إلى نفور المواطنين المسالمين من التعرف على الأعمال القذرة التى ترتكب باسمهم .

ولسوف أتناول شرورهم من زوايا أربع : الأولى عن الحرب فى فيتنام الجنوبية . والثانية عن سياسة العنف داخل الولايات المتحدة . والثالثة عن اغتيال كيندى . والرابعة عن تهديدات جولد ووتر .

١

الحرب فى فيتنام الجنوبية

كانت فيتنام الجنوبية — حتى نهاية الحرب العالمية الثانية — جزءاً من الهند الصينية الفرنسية . لكن الحركة الوطنية أشعلت ثورة عامة فى كل أنحاء الهند الصينية ، وأنزلت بفرنسا هزيمة ساحقة فى ديان بيان فو عام ١٩٥٤ ، وقام مؤتمر جنيف بتقسيم المنطقة إلى عدة دول مستقلة جديدة . وتم تقسيم فيتنام — مؤقتا — إلى جزأين : الشمال والجنوب . وكان مقرراً أن يتحد الشطران بعد إجراء انتخابات عامة فى وقت قريب . وفى ختام مؤتمر جنيف صرح و . بيديل سميث باسم الولايات المتحدة قائلا : « إننا قد أبلغنا بنصوص الاتفاقيات والفقرات من

١ إلى ١٢ التى تضمنها البيان النهائى .. ولسوف تمتنع الولايات المتحدة عن استخدام القوة أو التهديد بها . . ولسوف ترقب الولايات المتحدة أى تجديد لاستخدام القوة باهتمام بالغ « باعتباره خرقاً للاتفاقيات » وتهديداً للسلام والأمن الدولى » .

وتولت السلطة فى فيتنام الجنوبية حكومة رجعية تعتمد على المساندة الأجنبية . وتدفقت منذ ذلك الوقت القوات الأمريكية على فيتنام الجنوبية لمساندة حكم الدكتاتور نجو دينه ديم الذى ارتكب — بمساندة أمريكا — سلسلة من الفظائع التى أدت إلى وقوع تمرد ضده وتخلت أمريكا عنه ، وعلى أية حال لم تكن الحكومة الجديدة — التى كانت لعبة فى يد أمريكا — بأقل سوءاً من حكومة ديم . فمنذ وصولها إلى السلطة اقترفت بدورها — بمساعدة أمريكا العسكرية أيضاً — سلسلة من الجرائم التى لا تكاد تجد مثيلا لها فى العصر الحديث . إن الفظائع التى ارتكبت فى فيتنام الجنوبية خلال السنوات الماضية وفى ظل حكومتى فيتنام الجنوبية — والذى تم بتدبير ومساعدة أمريكا الضباط والجنود الأمريكيين — يحتاج سردها إلى مساحة تزيد كثيراً على المتاح لى فى هذا المجال .

لقد لاقت حكومة فيتنام الجنوبية ، استنكار ومقت الفلاحين

الذين يمثلون غالبية السكان، وكان الفلاحون ينضمون ــ كلما أمكنهم ذلك ــ إلى قوات حرب العصابات المعروفة بالفيت كونج . وللحد من هذا التيار الجارف من جانب الفلاحين، نقلت نسب كبيرة منهم من بيوتهم ليسجنوا فيما يسمى «بالقرى الاستراتيجية» . وفى هذه القرى أرغموا على العمل الإجبارى تحت إشراف ثلثمائة ألف جندى من البوليس السرى . كما تشن قوات الحكومة هجمات بربرية على القرى، بالأسلحة والمساعدات الأمريكية . وتقترف هذه القوات ــ التى يقودها أمريكيون ــ فظائع مرعبة .

ومعظم سكان فيتنام الجنوبية من البوذيين ــ ومما جاء فى بحث أخير أعده سيتشى ثيين هاو ــ أحد زعماء الطائفة البوذية ــ أن الحكومة قد أبادت ١٦٠ ألف فلاح حتى منتصف عام ١٩٦٣ كما عذب وتسبب فى عجز ٧٠٠ ألف آخرين . وألقى فى السجن بـ ٤٠٠ ألف واغتصب ٣١ ألف امرأة. وانتزعت أمعاء وأكباد ٣ آلاف وهم أحياء . كما أحرق ٤ آلاف من الأحياء . ودمر ألف معبد. وأغير فيما بين يناير ومارس عام ١٩٦٤ على ٤٦ قرية استخدمت فيها الغازات السامة .

وتتطابق هذه الأرقام التى وردت أيضاً فى تقرير جبهة

التحرر الوطني ، مع ما جاء فى تقارير كل من جمعية الصليب الأحمر الحرة فى فيتنام الجنوبية واتحاد نساء فيتنام الجنوبية والحزب الديمقراطى الفيتنامى . كما جاء فى تقرير اتحاد العلماء الأمريكيين أن الولايات المتحدة تستخدم الغازات السامة فى جنوب فيتنام وتتخذ من هذه البلاد حقل تجارب لاختبار الأسلحة الكيميائية والبيولوجية . كما جاء فى تقرير نشرته مجلة لوك (فى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٣) ومجلة ترو « الحقيقة » (فى ديسمبر ١٩٦٣) — وهما مجلتان لا تعارضان السياسة الأمريكية بشكل عام — إن قوات حكومة فيتنام الجنوبية تستخدم رصاص دمدم المحرم استخدامه دولياً باعتباره سلاحاً بربرياً . ولقد جاء فى تقرير لمراسل مجلة ترو : « لقد شاهدت أحد الذين أصيبوا برصاص دمدم فى ذراعه . فبمجرد ما أصابت ذراعه لف الرجل حول نفسه ثم تطاير ذراعه أشلاء . ورأيت شخصاً آخر أصابته رصاصة فى ظهره فأطاحت بقلبه خارج جسمه ليتدلى منه بالفعل . وشاهدت آخر أصيب برصاصة فى عجزه ، فلم يعش أكثر من خمس دقائق أما البعض الآخر فقد مات على التو . وكان من الممكن أن تصبح إصابات كل هؤلاء سطحية لو استخدم رصاص من نوع آخر » .

وفى تقرير للحزب الديمقراطى الفيتنامى المعروف بعدائه للشيوعية ــ حيث جعل شعاره « من أجل هزيمة الشيوعية ولصالح الأحرار فى كل مكان » ــ يقول التقرير : «لنفرض أن الغرض من تحصين القرى هو منع الفيت كونج من دخولها . لكن السلك الشائك يمنع الخروج منها، بالضبط كما يمنع الدخول . ويُجبر الفلاحون الفيتناميون بقوة السلاح على دخول المعسكرات التى تعد من الوجهة العملية معسكرات اعتقال . كما تحرق بيوتهم وممتلكاتهم ومحاصيلهم . واقتيد سبع من القرويين فى إقليم كيين تيونج إلى الميدان وأبقرت بطونهم وأخرجت أكبادهم لتعرض على المارة . وكان جميع هؤلاء الضحايا من النساء والأطفال . وقطعت رءوس اثنتى عشرة امرأة أمام أعين المواطنين فى قرية أخرى . كما قامت قوات الحكومة فى بعض القرى الأخرى ، بدعوة الحوامل إلى الميدان لتكرمهن ؛ إلا أنها قامت بتمزيق بطونهن وانتزاع الأجنة التى لم تر الحياة بعد » وكم يبدو مثيراً أن نعرف أن هذا التقرير قد نشر فى إحدى صحف ولاية دالاس الأمريكية . وهى صحيفة دالاس مورننج نيوز فى أول يناير عام ١٩٦٣ .

لقد كان هناك اتجاه بحظر نشر مثل هذه الحوادث .

وفى ٥ مايو من عام ١٩٦٤ ، أعلنت الأسوشيتدبرس « أن هناك وثيقة خطيرة جداً ومثيرة بين أيدى أعضاء إحدى اللجان الفرعية بمجلس النواب ، أدت بإدارة التوجيه لأن تضع القيود على حركة مراسلى الصحف الذين يقومون بتغطية أخبار الحرب فى فيتنام الجنوبية . وتقضى هذه القيود : ١ — بإبعاد المراسلين عن المناطق التى تدير القوات الأمريكية الحرب فيها بشكل كامل أو شبه كامل . ٢ — إبعاد المراسلين عن أى منطقة يتوقع — بناء على تطور الأحداث فيها — فشل إمكانية الاحتفاظ بالولاء الكامل لشعب فيتنام الجنوبية » .

إن الأحداث السابقة — رغم فظاعتها — تعد مجرد عينة صغيرة لأحداث كثيرة مماثلة . إنها تعطى لنا صورة عن نوع الحرب التى تشنها الولايات المتحدة فى فيتنام الجنوبية . تلك الحرب التى يمكن أن تتكرر فى أية منطقة أخرى من آسيا ، والتى يبدو أنها تتبع بالفعل فى الكونجو . إن كل أمريكى لا يعلن احتجاجه على هذه الحرب ، إنما يتحمل وزر هذه الأعمال البربرية . تماماً كما يحمل الرجل الألمانى العادى وزر جرائم أوستر ليتز .

والأمر الذى يجعل من استمرار الحرب فى فيتنام أكثر مثاراً للدهشة والفزع ، هو أن الطريق لإنهاء هذه الحرب واضح ،

والأمر لا يتطلب أكثر من تذكر اتفاقية جنيف والسماح لهذه المنطقة المعذبة أن تحظى بما تريد — أعنى بالحياد . لقد دعت عدة دوائر لها نفوذها ، إلى اتباع هذه السياسة ولكن دون جدوى .

إنه لمن الصعب علينا أن نقاوم الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يأمرون بارتكاب هذه الفظائع فى فيتنام وأولئك الذين يقومون بتنفيذها ، يستمتعون بتلك الجرائم ، يدانون بارتكابها . ومن بين هؤلاء الذين يأمرون بهذه الفظائع ، مسئولون أمريكيون يتدرجون حتى رئيس الولايات المتحدة نفسه .

٢

العنف داخل أمريكا

لقد امتدت سياسة العنف الأمريكية ، لتنعكس على حياة الأفراد وخاصة فى الجزء الغربى من الولايات المتحدة . ويتضح من تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالى الذى نشر حديثاً فى (صحيفة إيفننج ستاندارد فى ٢٠ يوليو عام ١٩٦٤) ، أن جريمة قتل ترتكب كل ساعة فى أمريكا ، وفى كل ٣٢ دقيقة تقع جريمة اغتصاب .

لقد نمت عادة عدم احترام القانون فى أمريكا خلال الصراع مع الهنود والزنوج وخلال الثورة الأمريكية والحرب الأهلية والحرب ضد المكسيك وخلال غزو الغرب . وإلى حد كبير بسبب التدفق المستمر للمهاجرين من غير الأمريكيين على الولايات المتحدة والذين لم يندمجوا بعد فى المجتمع الأمريكى. هذا بالإضافة إلى عدد من الأسباب الأخرى الأقل أهمية .

إن سياسة التمييز بين الزنوج والبيض . لمن أكثر المشاكل القائمة فى الولايات المتحدة خطورة وتفجراً وأكثرها استعصاء على الحل . وعلى أية حال لن أكتب الكثيرعن هذا الموضوع ، فهو معروف جيداً فى أمريكا كما أن الاهتمام به شائع فى كل مكان . ويبدو لى أنه من الأفضل أن أركز فى هذا الحيز المحدود ، على بعض المخاطر والفظائع التى تبدو غير معروفة على نطاق واسع .

حتى وقت قريب فى بعض الولايات الجنوبية بأمريكا ، كان الرجل الأبيض يستطيع أن يطلق النار على زنجى ، دون أن يعتبر هذا الفعل جريمة قتل . وكان الرجل الأبيض يفلت من العقاب على الأرجح . إلا أن هذا الواقع يتغير اليوم تحت تأثير ثورة الزنوج . فقد تفجرت اضطرابات هارلم على أثر مقتل

صبي زنجي على يدى رجل بوليس أبيض . وأيًّا كان ما يقول به القانون ، فالواقع أن الزنوج فى أنحاء كثيرة من البلاد يعتبرون خارجين على القانون من الوجهة العملية ، إن لم يكن من الوجهة النظرية . ولقد صار شعور الاستهتار بحياة الزنوج – وحتى بحياة البيض – شائعاً فى غرب أمريكا منذ بدأ تعميره . بل إن المحاكم نفسها لا تبدى احتراماً كبيراً للعدالة على نحو ما كان ينتظر منها . ومنذ حكم آدمز ثانى رؤساء الولايات المتحدة تتابعت على البلاد موجات من انتهاك القوانين .

فقد أعدم ساكو وفانزيتى فى عصرنا هذا ، على الرغم من أن براءتهما كانت واضحة . كما حكم على سوبل بالسجن لمدة ٣٠ عاماً ، لمجرد أنه كان صديقاً لأسرة روزنبرج . وكان الدليل الوحيد ضده ، ذلك الذى قدمه شاهد زور محترف ، لم يقدم للمحاكمة قط . وقد أعلنت الدائرة الثانية لمحكمة الاستئناف فى ٦ فبراير عام ١٩٦٣ ، أن من حق سوبل إعادة محاكمته ولكنها رفضت إعادتها بدعوى أنه تأخر فى طلبه فسقط حقه فى إعادة المحاكمة . وقالت المحكمة إن المحاكمة الأصلية كانت غير عادلة ؛ ولكن فات أوان إعادة النظر فى محاكمته بعد أن قضى ١٣ عاماً

فى السجن — قضى معظمهم فى سجن الكاتراز * . (من مذكرات لجنة النظر فى قضية سوبل — ١٩٦٣) . ولا يزال سوبل سجيناً حتى هذه اللحظة .

ومن الأفكار السائدة فى أمريكا ، أنه إذا كان المرء شيوعياً فلا حقوق له . ومن ثم يحق للمحاكم أن تدينه بأية جريمة تتراءى لها . وهكذا تتخذ الخرافة السائدة عن الحرية الأمريكية أشكالا بشعة ومنفرة . ولنأخذ على سبيل المثال قضية مقاومة قانون التعبئة العسكرية التى اتهم فيها رسل جودارد الذى قبض عليه فى ٦ يوليو ١٩٦٤ فى سانت لويس . فقد قال القاضى روى و . هاربر الذى حاكم جودارد ، عند النطق بالحكم : « إننى سعيد لأننى أعيش فى بلاد يستطيع أى إنسان فيها أن يتخذ الموقف الذى اتخذته . إنك تتمتع هنا بحرية التعبير عن رأيك بسبب الدماء والعرق والجهد والدموع التى بذلها الملايين» . وبعد أن ألقى القاضى بخطبته العصماء عن الحرية الأمريكية حكم على ضحيته بالسجن لمدة خمس سنوات . ولا شك أن القاضى هاربر لا يزال يعتقد أن أمريكا هى بلاد الحريات .

---

* أردأ سجن فى أمريكا . . ويعرف بأن من يدخله لا يخرج منه ، ففيه يقضى المحكوم عليهم بمدد طويلة ، مدة عقوبتهم .

ويؤكد افتقاد الحريات فى أمريكا ، الاعتقاد السائد هناك بأن الشيوعيين قوم بالغوا الخبث والشر . ويفترض فى كل إنسان له آراء مخالفة للمألوف ، أنه شيوعى وأنه عدو للبشرية . ويتحمس الأمريكيون لهذا الاعتقاد ، كما لو كان عقيدة دينية أشبه بعقيدة العبرانيين فى كتاب يهوذا ، حيث ذبحت جيل ، ساسيرا وهو نائم ، وترتب على فعلتها هذه أن اعتبرت بطلة قومية . وتنتشر مثل هذه الروح فى أمريكا بسبب سياسة العداء للشيوعية .

وقد كشف حادث اغتيال كيندى حقيقة أن الحصول على الأسلحة النارية فى أمريكا ، عملية سهلة للغاية بصورة تثير الدهشة . لقد قدم السناتور دود . على أثر هذا الحادث ، مشروعاً بقانون يدعو للتشدد فى شروط حمل السلاح بالنسبة للأفراد . ولكن دود صرح بعد ذلك أن مشروعه قد وئد على يد الجمعية القومية للأسلحة النارية .

وعلى ذلك ، ما زال الناس يموتون فى أمريكا من أجل أن تمتلىء خزائن الجمعية القومية للأسلحة النارية . وطبقاً للقانون يستطيع أى إنسان فى أمريكا ، الحصول على سلاح نارى بالبريد ونتيجة لهذا تتعدد حوادث إطلاق النار . (المصدر صحيفة جارديان فى ١٤ أغسطس ١٩٦٤) .

ويبدو أن قيمة حياة الإنسان قد فقدت أهميتها فى أمريكا. وربما لا نجد فى ذلك ما يثير الدهشة ، إذ يربى الأطفال الأمريكيون فى سن مبكرة للغاية ، على الإعجاب بالعنف كدليل على الشجاعة . واعتاد الأطفال أن ينظروا إلى رجال البوليس ورجال مكتب التحقيقات الفيدرالية والعسكرية — وكل من يحمل سلاحاً — باعتبارهم أبطالا . ولا يعير الناس أى اهتمام للحوادث الخطيرة التى تقع نتيجة للعب بالأسلحة النارية . وترمى سياسة « عبادة » العنف والقتال فى أمريكا ، إلى جعل الأبطال أنفسهم مجانين تماماً .

ذكرت صحيفة تايمز اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٢ يوليو ١٩٦٤ ، أن جندياً أمريكياً قد أطلق الرصاص على امرأة يابانية لأنها ضلت طريقها إلى أحد المعسكرات الأمريكية فى طوكيو.

وجاء فى التايمز فى عدد ٣٠ يوليو ١٩٦٤ «حوكم بالأمس جندى (٢٢ سنة) من سلاح الطيران الأمريكى ، أمام محكمة عسكرية أمريكية فى القاعدة التابعة لأمريكا فى ويذرس فيلد بمقاطعة إسكس ، وذلك بتهمة اللعب بسلاح نارى فى محاولة لإظهار تفوقه فى سرعة إطلاق النار . وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ٦ أشهر . ولويدلا بارون (اسم الجندى) ، أحد

جنود الدرجة الثانية فى البوليس الحربى لسلاح الطيران وقد خفضت رتبته وخصم من راتبه ٢٠ دولاراً فى الشهر لمدة ٦ أشهر. هذا ولم يصدق على الحكم بعد». وقد ذكر ل.ل. ريد، وهو من رجال سلاح الطيران، أنه قد ذهب فى ٢١ أبريل إلى الموقع رقم ١٣ حيث كان لابارون يقوم بنوبة خدمته، وقال ريد — وهو أيضاً من رجال البوليس الحربى لسلاح الطيران — «كان لابارون يجلس خلف مكتبه عندما دخلت. وقد بادرنى بالقول (دعنا نختبر مدى سرعتك فى إطلاق النار). وقفز من وراء مكتبه والتقط مسدسه فأسرعت بدورى بسحب مسدسى. وهنا انطلقت رصاصة». لقد قال لا بارون إنه غير مذنب. ثم ذكر أنه كان يرد على مكالمة تليفونية فى الموقع رقم ١٣ وأضاف «وبمجرد أن وضعت سماعة التليفون استدرت وقلت لريد: اسحب مسدسك فسحبه وأصابنى بطلق منه». واستطرد لا بارون أنه جرح فى بطنه، وأن مسدسه كان على المكتب بقدر ما يستطيع أن يتذكر، إذ أنه لا يحمله أثناء قيامه بتنظيف الموقع.

وهناك حقائق كثيرة عن تنظيمات معسكرات القواعد الأمريكية فى بريطانيا — وغيرها من البلاد دون شك — والتى تجعل شعارها «السلام هدف لنا» إلا أن إلمامنا بهذه الحقائق

قاصر إلى حد بعيد . وكانت مجلة نيوستيتسمان قد نشرت مقالا لى فى ١٧ فبراير ١٩٦١ ، ولست فى حل من ذكر مصدر المعلومات التى جاءت بالمقال فقد وصلتنى هذه الحقائق عن طريق إنسان عاشها وخالط آخرين عاشوا وقائع مماثلة لها . ومن الواضح أنه يصعب علىّ أن أكشف عن أسمائهم . وكنت قد قلت فى هذا المقال : هل هناك من يعلم أنه فى كل قاعدة من القواعد الأمريكية فى بريطانيا توجد نواة صلبة من الطيارين على درجة عالية من المران تمكنهم من أن يحلقوا فى الجو خلال دقيقة أو دقيقتين من لحظة أن يصلهم فيها أى إنذار . وهذه المجموعة تعيش فى عزلة تامة عن بقية أعضاء القاعدة ، ولا يسمح لأحد بأن يختلط بهم أو يرتاد موقعهم إذ أن لهم أماكن خاصة لتناول الطعام والنوم والمكتبات والسينما إلخ . . وهناك أيضاً حراس مسلحون يحولون بين الجنود الأمريكيين الآخرين فى القاعدة وبين الوصول إلى هذه الأماكن الخاصة . ويعود كل فرد من هذه المجموعة — بما فى ذلك قائدهم إلى أمريكا كل شهر أو شهرين ليحل محلهم مجموعة أخرى . ويكاد ألا يسمح لأفراد هذه المجموعة بأى اتصال بباقى الأمريكيين فى القاعدة ولا بأى فرد من سكان المناطق المجاورة لهذه القواعد . ويبدو

بوضوح أن الهدف من هذه الإجراءات ، يرمى إلى إخفاء أمر وجود هذه الجماعة عن البريطانيين . كما تهدف أيضاً إلى الحفاظ على طبيعة ردود الفعل الآلية للأوامر التى تصدر لهذه الجماعة والدعاية التى يعبئون بها . وذلك بالضبط ما يهدف إليه نظام التدريب المعد لهم . والأكثر من هذا أن الأوامر لا تصدر إلى هذه المجموعة من قيادتها المحلية ، وإنما من واشنطن مباشرة » .

ترى كم منا يعرف أن الحكومة الأمريكية ، كانت تمد المدنيين — طوال السنوات الماضية وما تزال — بالسلاح والذخيرة ، وتدربهم على استخدامها ؟ يقول ستانلى ما يزلر فى مقالة له بمجلة ذى نيشن (الأمة) فى ٨ يونيو ١٩٦٤ : « فى نهاية عام ١٩٦٣ ، كان الجيش الأمريكى يقوم بتدريب ٣٨٤٩٥٠ مدنياً على إطلاق النار وإصابة الهدف . ويزيد هذا الرقم على ثلث القوات الأمريكية المسلحة كلها . كما أن نصف هؤلاء من الشبان الذين لم يبلغوا بعد الثامنة عشر من أعمارهم . وقد كلف هذا البرنامج ، الحكومة ٦٢٠ ألف دولار فى السنة المالية الأخيرة » . ويمضى المقال كاشفاً عن الحقائق المفزعة التالية التى سأورد هنا بعضاً منها فقط . « لقد وضع الجيش الأمريكى نحو نصف مليون بندقية مستعملة فى أيدى المدنيين ، خلال

السنوات الخمس الأخيرة » . ويستطرد نقلا عن هنرى ب . جونز الز نائب دالاس بولاية تكساس ، من تصريحه فى مضبطة اجتماع الكونجرس الأمريكى يوم ٢٦ مايو ١٩٦٤ ، إن الحكومة الفيدرالية تؤيد وتساعد وتشجع قيام منظمة « الرجال الصغار » وهى منظمة من المتعصبين اليمينيين المعادين للشيوعية والمدربة على أساليب حرب العصابات وذلك من خلال برنامج تدريب المدنيين على إصابة الأهداف » وقد أورد جونز الز أيضاً ، فقرة من خطاب مفتوح بقلم : م. س. رايكا الابن ، مؤسس منظمة اتحاد بول ريفيز للحرس ، يحض فيها الأعضاء على الانضمام إلى الجمعية القومية للأسلحة الصغيرة وتخزين البنادق والرشاشات الخفيفة والمسدسات والالتحاق بمنظمة « الرجال الصغار » وكان رايكا يبرر مطالبته الأعضاء بالانضمام إلى الجمعية بقوله: إن الشيوعيين لن يستطيعوا قهر شعب مسلح . ويطالب رايكا بضرورة استمرار الجمعية القومية للأسلحة الصغيرة فى أداء رسالتها لكسب الرأى العام غير المستنير والمعادى للتسلح إلى صفها .

وباختصار ، إن فى أمريكا اليوم جيوشاً خاصة مستقلة ذاتياً عن الجيش الأمريكى ، ومدججة بالسلاح حتى قمة

رأسها ، تقوم بمحاربة كل شخص يبدى أى ميل للاختلاف معها سياسياً . كما أن هناك منابر خاصة للدعاية مثل برنامج هـ. ل. هانت الإذاعى ،والبرنامج المعروف باسم « خط الحياة » الذى يذاع من واشنطن ويصل إلى ٥ ملايين مستمع فى ٤٥ ولاية أمريكية . (المصدر مقال روبرت ج شيريل فى مجلة ذى نيشن عدد ٢٤ فبراير ١٩٦٤) .

وتوجد فى أمريكا أيضاً ، جمعيات تتميز بخروجها عن القانون وأساليبه البالغة العنف فى نفس الوقت . مثل جمعية جون بيرش والكوكلوكس كلان . وهى — برغم ذلك — غير محظورة قانونياً وتتسم مواقفهم بوحشية لم يسبق لها مثيل فى أى مكان من العالم ، حتى فى حالة عزلها عن موقفهم من الزنوج .

لقد أدت هذه الظروف المتعددة إلى خلق طائفة من المواطنين الذين يسعدهم العبث بالأسلحة النارية ، يعجبون بالعنف وينظرون إلى المسألة كدليل على الجبن ، مما ينمى لديهم باطراد الشعور بالحقد والميل إلى العنف . ومما لا يثير الدهشة ، أن بلاداً يسودها مثل هذا المناخ النفسى تنجب رجالا يقتلون رئيس جمهوريتهم .

٣

اغتيال كيندى

يتضح مما سبق ، أن أمريكا تعيش فى محيط تمزقه الخلافات والعنف ، وتمتلئ بجيوش خاصة تدعم اليمين فى الولايات المتحدة . ولا ينبغى لنا أن نندهش إذا أخذ العنف فى أمريكا طابعاً سياسياً . ورغم ذلك فقد ظلت أمريكا تتشبث بواجهة دستورية مما أصاب العالم بصدمة قاسية عند ما سمع نبأ اغتيال كيندى .

لقد حاول بوليس مدينة دالاس ورجال المخابرات المركزية الأمريكية ، أن يلصقوا جريمة اغتيال كيندى بإنسان مغمور هو أوزوالد ، وسعوا إلى أن يحملوا العالم على الاعتقاد بأن أوزوالد كان يتصرف بمفرده ودون شركاء له ، كما حاولت كل الصحف أن تؤكد هذا الزعم . وكان من الممكن أن تنجح هذه الجهات فى غيها ، لولا الجهد الخارق للعادة الذى قام به نفر قليل من الشخصيات الحريصة على المصالح العامة . وفى مقدمة هذه الشخصيات ، ماركلين ، وهو محام من نيويورك صاحب نظرة سياسية متحررة ، وإن كان أبعد مايكون عن اليسار .

لقد عين الرئيس جونسون هيئة ، عرفت باسم لجنة وارين ،

افترض أن تكون مهمتها وضع تقرير تفصيلي عن الظروف التي أحاطت باغتيال كيندي . وبعد أن انتهت اللجنة من وضع التقرير أخفى لمدة شهرين بقصد أن يتضمن التقرير تفنيداً للحقائق التي جمعها مارك لين . إن التقرير لم ينشر بعد[1] حتى كتابة هذه السطور . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتنبأ بالنغمة الأساسية التي ستسود اتجاهه . والكثيرون في أوربا يؤيدون جهود مارك لين ، ففضح مثل هذه الأعمال الفجة غير القانونية — التي يبدو أن المسئولين في الحكومة يحاولون إخفاءها — أمر لا يقل أهمية بالنسبة لنا ، عنه بالنسبة للأمريكيين أنفسهم . وقد تعرض كثير من هؤلاء الأوربيين المؤيدين لجهود مارك لين ، لتهديدات من قبل السفارات الأمريكية في بلادهم المختلفة ، تنذرهم وعائلاتهم بعواقب وخيمة إذا استمروا في تأييد جهود مارك لين .

وسرعان ما صدر تقرير مارك لين الذي وضح لكل من أقدم على قراءته ، أن سلطات مدينة دالاس قد نسجت سلسلة من الأكاذيب . كما أوضح أنه لا يوجد أي مبرر لافتراض أن أوزوالد مذنب . ولو كانت الأمور قد تطورت في مجراها الطبيعي لظهرت هذه الحقائق أثناء محاكمة أوزوالد ولكن البوليس

(١) نشر التقرير بعد كتابة هذا المقال.

اكتشف طريقة سهلة للحيلولة دون الكشف عن هذه الحقائق . فقد أتاح الفرصة لشخص من صنائعه يدعى روبى ، وهو صاحب ملهى ليلى ، أن يدخل إلى فناء السجن فى نفس الوقت الذى كان رجال البوليس يصطحبون فيه أوزوالد إلى المحكمة حيث أطلق روبى الرصاص على أوزوالد زاعماً أنه فعل ذلك بدافع من حميته الأخلاقية ضد جريمة اغتيال الرئيس كيندى . عندئذ تنفست سلطات البوليس الصعداء ، وواصلت أعمالها فى تشويه ذكرى أوزوالد . ورغم ذلك كله ، فقد واصل أولئك الذين لم يقتنعوا بالاتهام الذى وجه لأزوالد ، سعيهم للكشف عن الأكاذيب الرسمية . وقد نشرت نتائج بعض هذه الأبحاث فى كتاب بقلم يواقيم جوستن تحت عنوان « أوزوالد . . قاتل أم ضحية ؟ » . (الناشر مارزانى ومنسل نيويورك عام ١٩٦٤) . وقد استقيت ما سأقوله عن جريمة اغتيال كيندى من هذا الكتاب بشكل أساسى .

لقد كان أوزوالد شخصاً مغموراً ، يعيش على هامش الحياة السياسية . وقد قضى فترة من حياته فى روسيا مدعياً الشيوعية . وقد قيل بعد عودته إلى أمريكا ثانية ، إنه ذهب إلى روسيا كجاسوس للمخابرات الأمريكية ويبدو أن السلطات الأمريكية

قد تقبلت هذه الرواية . وقد قام بوليس مدينة دالاس باستجواب كل شخص ثارت حوله أية شبهات ، عندما أعلن عن زيارة كيندى للولاية . ولكن أوزوالد لم يكن من بين هؤلاء الذين استجوبوا . وكان أوزوالد يعمل فى مبنى مخزن كبير للكتب بدالاس . ولم يكن الفضل فى حصوله على هذا العمل يرجع إليه . ولم يكن من المقرر — عندما نشر خط سير موكب كيندى فى مدينة دالاس — أن يمر الموكب بالقرب من مخزن الكتب . ولكن تغير خط سير الموكب فى اللحظة الأخيرة حيث تقرر أن يمر الموكب — فى جزء من خط سيره — فى متناول مرمى بندقية بمخزن الكتب . وقد أعدت هذه الترتيبات بحيث يصبح ممكناً إلصاق التهمة بأوزوالد .

وعلى أية حال ، فقد شاب البيانات الرسمية التخبط والاضطراب فى المراحل التالية من التحقيق فهناك جدل كثير حول المصدر الذى أطلقت منه الرصاصة ، وعما إذا كانت الإصابة القاتلة ، قد أحدثتها رصاصة أطلقت من الأمام أم من الخلف وقد توصل جوستن من دراسته للقضية إلى أن رصاصات ثلاثة أو أربعة قد أطلقت على كيندى . ولو افترضنا أن الرصاصات جميعها قد أطلقت من مخزن الكتب ، فينبغى

أن تبلغ – فى تقديره – أربعة . أما إذا كانت ثلاثة ، فمعنى ذلك أن إحدى هذه الرصاصات ، لابد أن تكون قد أطلقت من مكان أكثر قرباً إلى موكب كيندى . ويرجع غموض هذا الاستنتاج إلى حقيقة أن التقارير الطبية عن إصابة كيندى لم تكن محددة . فقد قرر الأطباء الذين فحصوا الجثة بعد حادث الاغتيال مباشرة ، بالإجماع ، أن الرصاصة قد أطلقت من الأمام . إلا أنه عند ما نقلت الجثة إلى واشنطن ، تضمن التقرير الذى أعدته مصادر « موثوق بها » من أطباء وشنطن ، أن الطلقات جاءت من الخلف . ومنذ لحظة الاغتيال وبقية الرواية عبارة عن محاولة واضحة لتلفيق الأدلة والضغط على الشهود ليسلس قيادهم ومنعهم من الإفضاء بما شاهدوه أو عرفوه . ومن الأدلة الصارخة الجديرة بالملاحظة أن البوليس شريك فى جريمة اغتيال كيندى ، الإذاعة التى وجهها عمدة مدينة دالاس ، قبل إطلاق الرصاص على كيندى بخمس دقائق . فقد قال : « لست أدرى ماذا جرى » ثم أضاف موجهاً الحديث إلى مساعديه « احشدوا كل رجال البوليس الذين فى السجن وفى المكاتب ، واتجهوا إلى ساحة الخط الحديدى القادم من ألم ، بالقرب من الممر الثلاثى السفلى » .

أما كيف عرف العمدة أن شيئاً مفزعاً على وشك أن يحدث فذلك ما لم يقدم أحد تفسيراً له . وعندما عرف نبأ إطلاق الرصاص على الرئيس كيندى ، توجه رجال من البوليس إلى مخزن الكتب وقاموا باستجواب كل الموجودين فيه باستثناء أوزوالد . ولما قيل لهم إن أوزوالد يعمل فى هذا المبنى ، سمحوا له بالانصراف . وقد زعمت السلطات أن أوزوالد قد توجه بعد ذلك إلى مكان ما فى أطراف المدينة حيث قام بقتل رجل بوليس يدعى تيبيت . ولكن السلطات لم تقدم دليلا على إدانة أوزوالد فى هذا الحادث أو تفسيراً لقيامه به . والواقع أن كل الحقائق التى نعرفها ، تحملنا على الاعتقاد بأن أوزوالد لم يقترف مثل هذا الحادث أيضاً . والأكثر غرابة من هذا كله ، أن اتهام أوزوالد بأنه قاتل تيبيت ، قد صدر فى المدينة قبل أن يتعرض تيبيت لإطلاق الرصاص بحوالى نصف ساعة . إن هناك أدلة أخرى تنحو إلى تبرئة أوزوالد من هذا كله . منها على وجه الخصوص نتيجة اختبار البرافين الذى أثبت أن وجنة أوزوالد لم تلامس كعب بندقية . ولو أن قضية أوزوالد قد قدمت إلى المحاكمة فمن غير المعقول أن أية محكمة كانت ستدينه . فالقضية فى مجموعها واضحة ومقنعة تماماً .

وليس هناك ما يصعب تصديقه من القول بأن بوليس مدينة دالاس ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، أو أجزاء منها، ضالعان فى جريمة اغتيال . فقد كان لكيندى أعداء أقوياء وخاصة فى صناعة البترول . وكانت صحف مدينة دالاس قد عبرت عن عدائها المرير لكيندى قبل وفاته بفترة قصيرة . وتعتبر المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالى والأجهزة المماثلة نفسها فوق القانون . كما أنها تملك القدرة على التحكم فى أعمال الحكومة المدنية . ولقد سمح لهذه الأجهزة أن تنمو بسبب الخوف المحموم من الشيوعية .

إن هناك خطراً حقيقياً يقول باحتمال قيام دكتاتورية فاشية فى أمريكا .

٤

تهديد جولد وتر

إن أمريكا — كما سبق أن رأينا — بلاد يختمر فيها الاضطراب . وتقوم فيها عدد من الجيوش الخاصة التى تتكون كلها تقريباً من عناصر رجعية متطرفة . ونتيجة لهذا ، نجد أن الأمريكيين الذين لا يستمعون لنداء العقل ، مدججون بالسلاح

بينما لا يملكه المتعقلون الراشدون منهم . ولقد كان اغتيال كيندى أول نتائج هذا الواقع القائم بالفعل . أما النتيجة الثانية ، فتتمثل فى اختيار جولد ووتر كمرشح للحزب الجمهورى لرئاسة الجمهورية . ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما ستكون عليه سياسة جولد ووتر لو انتخب ، إلا أن الخطاب الذى ألقاه بنفسه فى سان فرانسسكو ليعلن قبول ترشيحه لانتخابات الرئاسة ، هو خير تعبير عن سياسته . لقد رفض جولد ووتر فى خطابه أية محاولة للوفاق مع الشيوعيين . لقد صرح أن العداء للشيوعية ، ينبغى أن يكون حجر الزاوية لسياسة الولايات المتحدة . مما يستتبع بالتالى انتهاج سياسة حافة الهاوية . ويعتقد جولد ووتر — أو يزعم أنه يعتقد — بأنه إذا تعرضت روسيا للتهديد بشكل دائم ، فلسوف تتراجع وتستسلم فى النهاية وبهذا يمكن — فى اعتقاده — القضاء على الشيوعية ، دون ما حاجة إلى حرب عالمية .

ويرى جولد ووتر أن قائد قوات حلف الأطلنطى ، يجب أن يتمتع بصلاحيات وحق استخدام الأسلحة النووية الأمريكية وقتما يشاء ، وذلك بدلا من رئيس الولايات المتحدة . إن القائد العام لحلف الأطلنطى أمريكى الجنسية ومن المحتمل أن يظل هذا المنصب فى يد الأمريكيين . ومن المتوقع أن يشغل أحد

أنصار جولد ووتر هذا المنصب فى حالة فوزه . وإنه لمن الصعب أن نتنبأ مقدماً ما إذا كان جولد ووتر سينجح فى انتخابات الرئاسة ، أم لا .

لقد تربى الرأى العام الأمريكى ، على أن يتقبل فكرة زائفة تماماً عن كل من الشيوعية وأمريكا نفسها . والاعتقاد الشائع لدى الأمريكيين ، أن بلادهم تقف فى جبهة الحرية بينما تمثل الشيوعية الاستبداد المقيت للأقلية ، وكلا الاعتقادين زائف ، وإنه لمن الصعب على أمريكا أن تلعب دوراً رشيداً فى السياسة الدولية ، ما لم تتخل عن هاتين الفكرتين . وجولد ووتر يتزعم الاتجاه غير الصادر عن العقل . وإذا فاز فى الانتخابات ، فاحتمالات أن يكون المستقبل مظلماً قائمة . ويصدق نفس المصير ، لو خسر جولد ووتر الانتخابات شخصياً ، وتبنى منافسه نفس السياسة . إن الظواهر تدل — حتى الآن — على أن الاحتمال الأكبر ، هو نبذ جولد ووتر كرئيس للولايات المتحدة — وأن يتبنى منافسه سياسته ، وما يحدث فى فيتنام الجنوبية أخيراً ، مصداق لهذا القول .

ورغم ما يزعمه جولد ووتر عن حبه للحرية ، فإن ذلك لا يحمله على تقبل الجهود التى تبذل بقصد تغيير الاتجاه

المتعصب لدى السواد الأعظم من سكان الولايات المتحده فلقد ساد خطابه فى سان فرانسسكو لهجة التعصب والغوغائية. وتنتشر مثل هذه الحالة النفسية بسهولة حيث تصعب مقاومتها فيما بعد .

ما هى — إذن — النتائج المحتملة ، لو انتصرت سياسة جولد ووتر ؟ إنه لمن الصعب أن نعتقد أن الدول الشيوعية سوف ترضخ بهدوء للتهديدات الأمريكية والمزيد من الأعمال الاستفزازية ، كحادث طائرة التجسس ى ٢ ، الذى وقع أثناء مؤتمر القمة فى باريس . أو كحادث الطائرة المماثلة الأكثر خطورة والأقرب عهداً ، الذى وقع فى ذروة أزمة الكاريبى . فمن الواضح أن مثل هذه التهديدات والأعمال الاستفزازية لن تنتهى، إلا بانتهاء كل الحكومات الشيوعية . ولو افترضنا أن خروشوف نفسه كان على استعداد لأن يرضخ لمثل هذه التهديدات فإن أشباه جولد ووتر من الروس الذين افترض وجود بعض منهم فى روسيا، سوف يسقطون خروشوف، ويصرون على انتهاج سياسة أكثر حدة وستكون النتيجة فى هذه الحالة حرباً نووية عالمية وتقويضاً للحضارة إن لم يكن فناء البشرية نفسها . ولا شك أن مثل هذه الصورة للمستقبل ، لا ترضى حلفاء أمريكا الأوربيين . فمن المتوقع أن تضع سياسة

جولد ووتر ، حداً لوجود حلف شمال الأطلنطى نفسه .

ولو افترضنا نجاح سياسة جولدووتر ، ورضوخ الدول الشيوعية لها ، فإن أولى النتائج التى ستترتب على ذلك هى سيطرة طغيان العسكرية الأمريكية على العالم كله باسم الحرية . ولن تستقر أسس هذا الطغيان طويلا . ولن يلبث أن ينهار ويتحول إلى فوضى خلال سنوات قلائل .

ولا بد أن تفرخ ظاهرة جولد ووتر ، أحد هذين الاحتمالين وكلاهما مفزع ، وكلاهما يلقى استنكار ومعارضة كل من لم تذهب بعقله الدعايات المعادية للشيوعية .

وأمريكا تزعم أنها قائدة « العالم الحر » . ولكنها لا تستطيع أن تقوم بهذا الدور — بكفاءة — بسبب فزعها من الاشتراكية . ولنتأمل على سبيل المثال اضطرابات هارلم . فسوف يدعو منهج جولد ووتر للتسامح مع رجال البوليس البيض الذين أطلقوا الرصاص على الصبية الملونين باعتباره أولى الخطوات نحو الحرية . أما السياسة الأكثر تعقلا فهى تلك التى تدعو إلى إنفاق الأموال العامة لإزالة حى هارلم القديم وإقامة مساكن جديدة ملائمة لسكنى الزنوج . ولكن فكرة كهذه تعد — فى نظر الجولد ووتريين — فكرة اشتراكية . إن التخطيط الذى

تقوم به المؤسسات الخاصة من أجل مصالحها يثير الإعجاب . أما التخطيط الحكومى لتحسين مستوى معيشة الفقراء المعدمين ، فيعد أيضاً عملا اشتراكيًّا ، ومن ثم عملا شريراً . ويعتقد هؤلاء ، أن نزع السلاح يجعل المشاكل الاقتصادية مستعصية على الحل . إن المنهج الاقتصادى الأمريكى ، منهج متخلف بما يساوى مائة عام . مما يحد من قدرة أمريكا على قيادة (العالم الحر) .

إن العلاج الوحيد لهذا الموقع ، يكمن فى تغيير أسلوب التفكير الأمريكى تغييراً جذريًّا ، والعمل على خلق مناخ فكرى أمريكى جديد . وذلك عن طريق أجهزة الدعاية الرسمية وأجهزة الإعلانات ، وهى نفس الأجهزة التى ربت الشبان على روح الإعجاب بالذين يسفكون الدماء دون مبالاة ، وعلى ازدراء أولئك الذين تسفك دماؤهم ، هذه الأجهزة التى تصور رجل البوليس ، فى صورة الرجل الشجاع بينما تصور ضحيته كجبان . لقد كان ذلك كله جزءاً من الطريق نحو دولة بوليسية وأصبحت الدولة نفسها ضحية — ربما عن غير قصد — لمفاهيم مجموعة من المسلمات التى تروج لمنهج فكرى يقول بأنه لا يمكن القضاء على جميع الشرور ، إلا بإطلاق النار أو إحدى وسائل العنف

المماثلة . ورغم أن الولايات المتحدة ، مليئة بالكثيرين من علماء الاجتماع المتخصصين والذين يمكن أن تستفيد من نصائحهم فى علاج كثير من هذه الشرور ، إلا أن الحكومة الأمريكية تضم آذانها عن هذه النصائح ، بل تستمر فى تثقيف الشعب بصياغة مفاهيم معينة لتشويه الاشتراكية والشيوعية ، وتصور سجن خصومها على أنه دليل على (الحرية) .

إن أمريكا مريضة . ومرضها هذا يعرض العالم كله للخطر . وقوة هذه البلاد الجبارة ومواردها الضخمة تحتم ضرورة إيجاد علاج لمرضها. وأول ما تحتاج إليه أمريكا ، هو أن تعلم أبناءها أن التفوق لا يكمن فى العنف وأنه لا بد من نبذ مشاعر الحقد والكراهية. إن تغيير وجهة النظر لمهمة عظمى ينبغى على الأمريكيين الراديكاليين أن يحاولوا الاضطلاع بها ولست أدرى ما إذا كان لدى هؤلاء الراديكاليين ، روح الإقدام التى تتطلبها مثل هذه الضرورة أم لا . ولكننا نأمل أن يكونوا فى مستوى الموقف .

ب ـ آراء « لسارتر » حول القضية الفلسطينية

خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة وغزة فى فبراير مارس عام ١٩٦٧

قام جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بزيارة الجمهورية العربية المتحدة وقطاع غزة فى الفترة من ٢٥ فبراير ــ ١٣ مارس عام ١٩٦٧ . وذلك بدعوة من الأهرام .

وخلال هذه الفترة عقدت لقاءات واسعة بين سارتر وبين جماهير الشعب العربى فى مصر وغزة من مختلف القطاعات ، وكان فى مقدمة القضايا التى نوقشت خلال هذه اللقاءات ، قضية فلسطين ، حيث أدلى سارتر فيها بآراء محددة سواء فى غزة ، أو خلال لقائه مع أساتذة وطلبة وطالبات جامعة القاهرة[١] .

من حوار سارتر مع الشعب الفلسطينى فى غزة :

ــ شكراً لكم . . فبفضل معونتكم استطعت أن أرى الواقع

---

(١) نشرت الطليعة فى عددها الصادر فى أول أبريل ١٩٦٧ ملفا خاصا يضم حوار سارتر وسيمون دى بوفوار مع العمال والفلاحين والمثقفين العرب فى مصر وغزة.

الفلسطينى وأن أفهم جيداً ما يمكن أن يشعر به الرجال والنساء والأطفال الذين يعيشون فى معسكرات بعيدين عن أرضهم ، وأن أفهم أيضاً رغبتهم العميقة فى العودة إليها . وأنا أعرف أنكم تنظمون أنفسكم للوصول إلى هذا الهدف، وعلى ذلك وبسبب فهمى هذا فإن عواطفى معكم .

(سارتر — فى لقائه مع اللاجئين والشعب
الفلسطينى فى غزة فى ١٩٦٧/٣/١٠)

— إنكم تطلبون منى خلال زيارتى لإسرائيل أو كما تعبرون عنها فلسطين المحتلة ، أن أزور هناك بعض القرى العربية مثل كفر قاسم وأن أرى وأتحدث مع العرب هناك . وهذا أمر لم أنسه بل إننى منذ البداية أبديت رغبتى الواضحة الصريحة فى مقابلة العرب وأعدكم أننى سوف أفعل هذا وأزور جميع الأماكن التى طلبتم منى زيارتها والتحدث إلى العرب هناك وتحقيق حالتهم ووضعهم . وسوف أنشر فى عدد مجلتى « العصور الحديثة » الذى سوف أصدره عن القضية من وجهتى النظر العربية والإسرائيلية وثيقة خاصة بالمنظمة العربية داخل إسرائيل المعروفة باسم الأرض . وإنى لأشكركم على هذه الصراحة فى الحديث معى وأستطيع أن أوكد لكم أننى سوف أنقل وجهة

نظركم إلى فرنسا وزملائى الفرنسيين .

(سارتر – فى لقائه مع اللاجئين والشعب
الفلسطينى فى غزة فى ١٩٦٧/٣/١٠)

– أستطيع مطمئناً أن أقرر لكم أنى أعترف دون تحفظ بالحق القومى لجميع اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى بلادهم .

(سارتر – فى لقائه مع اللاجئين والشعب
الفلسطينى فى غزة فى ١٩٦٧/٣/١٠)

من حوار سارتر مع أساتذة وطلبة جامعة القاهرة :

– الذى أستطيع أن أقوله لكم الآن بعد أن زرت غزة هو ملاحظتين : الأولى هى أنى أحسست إحساساً عميقاً بمأساة كل هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظروف بائسة بل ولا تحتمل فى بعض الأحيان ، الذين يعيشون على حدود البلد الذى كان بلدهم . والملاحظة الثانية هى أنى أعتبر أن حق الفلسطينيين القومى فى العودة إلى البلد الذى كانوا يعيشون فيه هو حق لهم لا تجوز مناقشته إطلاقاً . ولن أذهب فى حديثى اليوم إلى أبعد من هذا ، لأنه قد يتساءل البعض وكيف يعودون إلى بلدهم وما هى العلاقة التى يفترض أن توجد بينهم وبين من يوجدون بإسرائيل اليوم إلخ ؟ أقول لن أذهب

إلى أبعد مما قلت وسأقول لكم السبب : إننا نقوم الآن فى مجلة « العصور الحديثة » بتحضير عدد خاص عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، سنقدم فيه لأول مرة وجهة النظر العربية بأقلام كتاب عرب ، وسيقدم هؤلاء الكتاب كل وجهات نظرهم ، ومن بين هؤلاء الكتاب كتاب فلسطينيون ينتمون إلى (منظمة التحرير أى الحكومة المؤقتة السرية) وفى نفس الوقت سنقدم وجهة نظر معروفة فى فرنسا اليوم أكثر من وجهة النظر العربية وأعنى بها وجهة النظر الإسرائيلية . سنقدم وجهتى النظر وذلك لأننا لو أعطينا وجهة نظر واحدة ؛ فإن إعلام الجمهور الفرنسى ، هذا الجمهور الذى أعرفه تماماً ، سيكون إعلاماً ناقصاً . إن الرأى العام الفرنسى فى حاجة إلى وجهتى النظر لكى يحكم . ولكى نحصل على وجهتى نظر الجانبين ، أعنى العرب والإسرائيليين ، وهما يرفضان الحوار تماماً فيما بينهما فقد قررنا ، لا أن نكون محايدين وإنما متغيبين تماماً . أى أن نكون غير ممثلين على الإطلاق فى هذا العدد . إن هذا العدد سيتكون من جزء سيكتبه الإسرائيليون وجزء آخر منفصل سيكتبه العرب ، ولن نضيف أى شىء أكثر من هذا . سنقول ببساطة إننا نقدم هذا العدد . . مفهوم إذن أنه لن

يكون هناك حوار من أى نوع بين العرب والإسرائيليين ، كما أنه ليس هناك أى تدخل من جانبنا . فى مثل هذه الظروف لو أننى ذهبت إلى البحث فى أعماق المشكلة فإنى فى مثل هذه اللحظة سأكون منحازاً وإذا حدث فإنى أحنث بالعهد الذى قطعته على نفسى فى مواجهة هذا العدد الذى أعده ، إذن فإنى أتوقف عند حد هذا القول الذى أعلنته .

(سارتر — فى لقائه مع أساتذة وطلبة وطالبات
جامعة القاهرة فى ١١ مارس ١٩٦٧)

فهرس